هاني الخير

صور وطرائف من مجتمع دمشق

أبو عمرو البغل

صُوَرٌ وطرائفُ من مجتمعِ دمشق

صور وطرائف من مجتمع دمشق

اعداد وتوثيق

هاني الخيّر

١٩٥٠ -

كتب ذات فائدة

حقوق الطبع والترجمة والاقتباس
محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
دمشق
١٩٩١/١١/٢٠٠٠

مطبعة [illegible]

الغلاف : تصميم الفنان عبد الهادي دباب

تطلب مؤلفات هاني الخيّر من الكاتب بالذات :
سورية ـ دمشق ص . ب : ٢٧٤
ويمكن إرسالها لطالبها بالبريد المسجل ، أو بالبريد الجوي
بعد تسديد ثمنها بحوالة بريدية أو مصرفية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿٢٣﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم
مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

الإهداء

إلى والدتي الرائعة ...

تحية إكبار وعرفان لن أنساه ...

هاني

تمهيـــد

بقلم الأستاذ ديب علي حسن

أبو عبدو البغل

دمشق أم الدنيا ... وأقدم عواصمها المأهولة حتى الآن ... دمشق شامة الدنيا – كما كنا نسمع من آبائنا وأجدادنا – .

دمشق هذه حديقة غنّاء حوت أنواع الورود كافة ، ففاحت على الدنيا بأريج يبهج النفوس ويفرج الهموم ... أريج دمشق لا يعرفه إلّا من عاش في دمشق ، وقاسمها حلوها ومرها ، عاش أحزانها وأفراحها ، دمشق نهر خالد لا ينضب ، ماؤه أبداً متدفق كسلسبيل عذب معطر بدم الياسمين ، كل ما يعكر صفو هذا النهر الخالد الذي ينهل منه الغادي والرائح يتجه نحو القاع ، يختلف المذاق باختلاف الشارب ، ومع ذلك تبقى نشوة الارتواء من ماء دمشق سراً لا يعرفه إلّا من عاش في دمشق .

كثيرون هم الذين عاشوا دمشق ، عشقاً ، وأملاً ، وحباً ، تنشقوا عطر ياسمينها وما بخلوا عليها بالعسل المصفى من رحيقها ، غنوها ورسموها رصدوا ماضيها وحاضرها ، حركتها وسكونها ، نقلوا لنا ما يمتع النظر ويبهج النفوس ، عشرات الكتب .. ومئات المجلات تحدثت عن دمشق تاريخاً ، مجتمعاً حضارةً ، ولكن قلة قليلة من هذه الكتب استطاعت أن ترصد حركة الحياة الاجتماعية وأن تنقل لنا طرائفها الغريبة والجميلة الحلوة بآن واحد ، ومن بين هذه الكتب يأتي كتاب الزميل الأستاذ هاني الخيّر .

لقد بذل جهوداً استثنائية غير عادية .. في جمع المراجع والمصادر النادرة التي قلما يجتمع منها مرجعان أو ثلاثة في مكتبة أديب ! فكيف بالعشرات والمئات من المجلات القديمة والوثائق النادرة .

هذه المعطيات الأولية تحتاج إلى اطلاع واسع ، وبصيرة نفاذة إلى أعمق الأعماق تكشف الواقع وتشير إلى ما وراء السطور من غير أن تقول شيئاً ، إذا أضفنا إلى ذلك صعوبة الحصول على الصور « الفوتوغرافية » التي أغنت الكتاب وجعلته يحقق متعتي القراءة والنظر . وكذلك هناك انتقاء الحدث التاريخي والسياسي والإجتماعي ، الذي يرصد الحركة العفوية للناس ، من أغنياء ، وبسطاء ، وظرفاء .

وأخيراً لا بدّ من القول إلى أن حاجتنا ماسة لتوثيق الحياة الاجتماعية والسياسية في محافظاتنا السورية ، ولنفس المدة الزمنية التي وثقها الزميل هاني الخيّر ، وبذلك نستطيع أن نرسم صورة اجتماعية وسياسية تكون صلة الوصل بين مدتين زمنيتين غير متباعدتين .

ديب علي حسن

دمشق
في
دائرة المعارف العالمية (يونفرسال)

(البرلمان السوري) مجلس الشعب حالياً

دمشق هي أهم مدينة في سورية . وهي مدينة بثرائها إلى مجرى بردى الخالد ، وإلى الخبرة العريقة للرجال الذين أتقنوا منذ القدم أساليب ري الأراضي الخصبة وتحويلها إلى واحة غنية (الغوطة) . وهذه المدينة التي يعود تاريخ بنائها إلى آلاف السنين فكانت موئل الفنون فترك فيها التاريخ ، بخاصة التاريخ العربي ـ الإسلامي روائع البناء والفن .

لم يستطع النفوذ الأوروبي التسرب إليها إلَّا في منتصف القرن التاسع عشر ،

وعندئذ نمت المدينة وعرفت عدة تحولات ولكنها حتى الآن تعكس وجه ماضيها الفني أسلوب وهندسة البناء .

□ حقبة ما قبل الإسلام :

في القرن الخامس عشر قبل الميلاد كانت دمشق (التي استوطنها البشر قبل الأربعة آلاف عام على الأقل) قد تعرضت للفتح من قبل تحوتمس الثالث وفي القرن الحادي عشر صارت عاصمة بلاد آرام واشتهر هيكلها (حدّد) . ومنذ فتحها الاسكندر (٣٣٣ ق . م) خضعت دمشق لنفوذ الغرب حتى جاء المسلمون عام (٦٣٦) بعد الميلاد ... وانتقلت إلى هيمنة روما عام (٦٤) وكرس هيكل جديد لجوبيتر أب الآلهة وسيدها لدى الرومان تحت اسم (جوبيتر الدمشقي) حلّ محل (حدّد) وما زال سوره ذو الركائز المتوجة بالأفاريز من النمط المصري يبدو للعيان في جدران الجامع الكبير ... كما أن المداخل الفخمة المدهشة ما زالت محفوظة ومنها باب البريد الباب الغربي للجامع الكبير المزين جبهته بأوراق وزخارف نباتية .

وفي ظل الإمبراطور تيودور تم تحويل الهيكل الوثني إلى كنيسة . بعد هزيمة البيزنطيين قرب اليرموك عام (٦٣٦ م) كان فتح المسلمين لدمشق حدثاً بعيد الأثر : نهاية ألف عام من الهيمنة الغربية ودخول البلاد في ملك العرب الساميين .

□ العصر الأموي :

بتولي الخليفة معاوية عام (٦٥٦ م) ، أصبحت دمشق عاصمة الإمبراطورية الأموية التي امتدت من بحر قزوين إلى الأطلنطي . وتعود إلى الخليفة الوليد أول مبادرة لبناء واحدة من أعظم روائع الفن والهندسة المعمارية الإسلامية ـ الجامع الأموي الكبير بدمشق ، وقد اختلفت الروايات حول أصل هذا الجامع .. أما الآن فالأدلة تؤكد أن الصرح لم يكن كنيسة رئيسية تم تحويلها بل هو مشروع بناء قائم بذاته ونشأ ليكون جامعاً إسلامياً ... ـ إلا أنني أميل إلى أن الجامع الأموي قد أقيم على أنقاض المعبد الوثني والكنيسة ـ .

باتساع أقسامه .. وروعة ديكوره .. وغني مواد بنائه فإن هذا الجامع الذي ينقل إلينا آثار عدة ترميمات وإصلاحات وتجديدات ، قد أذهل ولا يزال الخيال الإنساني وقدرته المبدعة منذ (١٣) قرناً ، وأوحى بالتخطيط لبناء عدة جوامع وبخاصة في حلب ، وديار بكر ، وتركيا ، وقرطبة .

□ الحقبتان الزنكية والأيوبية :

منذ ظهور العباسيين في العراق ، وحتى الاستيلاء على السلطة من قبل السلاجقة في دمشق . فقد كانت حقبة سادت فيها الفوضى ... وفي زمن الصليبيين لعبت دمشق دوراً كبيراً خصوصاً في عهد نور الدين ثم صلاح الدين ، حيث برزت كعاصمة للإشعاع الإسلامي في مواجهة الفرنجة ... ورمم السور ودعمت الأبواب وبخاصة الباب الصغير وباب الجابية الباقيين حتى أيامنا هذه ، وقد ضوعفت الجوامع ومدارس نشر المعرفة الإسلامية ، فظهر نمط معماري جديد : المدرسة الوقفية متمثلة في المدرسة النورية والعادلية ، وهما من روائع فن قطع وصقل الحجارة وبخاصة أبواب المداخل ذات المفاتيح المدلاة . وفي تلك الحقبة بالذات أنجز أيضاً (مارستان النوري) ، أشهر مشافي العصر الوسيط ، القائم حول بهو مركزي ، في كل جهة فيه إيوان مفتوح على البهو دون جدار واجهي وتحت الإيوان الرئيسي كانت تعطى دروس الطب ويتميز المبنى ببابه الكبير وقبته التي تؤكد ارتباطه بهندسة وأسلوب بلاد ما بين النهرين .

وفي ظل حكم الأيوبيين ، ورثة صلاح الدين ، صارت دمشق مركزاً نشطاً جداً منافساً للقاهرة ـ عام (١٢٠٦ م) شقيق صلاح الدين الملك العادل ـ أدخل ترميمات على قلعة دمشق التي بقيت أكثر صيانة بين جميع القلاع والحصون العربية في سورية لتلك الحقبة بحيث أصبحت أبراجها الـ (١٣) تشرف على أسطحة المدينة القديمة كلها ...

وأجمل المدارس الوقفية الأيوبية كانت الشامية بنتها أخت صلاح الدين

« العزيزية » ذات القبة المرتكزة على إطار مثمن الزوايا وتنسب إلى صلاح الدين . والمدرستان تحفظان آثار الزجاج القديم المشغل من صفائح ملونة مرصعة (مثل زجاج العهد الأموي) المؤطر بالجبس . وديكور الشامية الجصي جميل جداً وهو دمشقي أصيل .

□ عهد المماليك :

بعد طرد المغول من سورية بدت حقبة جديدة . حيث انضمت دمشق إلى سلطة المماليك الذين استولوا على السلطة في القاهرة واستولوا على دمشق التي خربها ورلنك عام ([illegible] م [1]) ناقلاً إلى سمرقند أحسن الحرفيين فيها . وتميزت عمارات تلك الحقبة بالواجهات المتعددة الألوان ، والأبواب المائلة والقباب العالية . وأول بناء مملوكي كان المدرسة الظاهرية (السلطان بيبرس ١٢٧٧ م) . في القرن الخامس عشر بنيت الواجهات المنقوشة والأبواب الهابطة لمدرستي (الجقمقية ـ ١٤٢١ م ـ الصابونية ١٤٦٤ م) وهما مثال يخالف أصول الهندسة المعمارية وأسلوب البناء الدمشقيين .

□ العهد العثماني :

طرد الفتح العثماني المماليك عام (١٥١٦ م) ، وأعاد الأمن الداخلي فعادت التجارة إلى الإزدهار ، وصارت طرق المواصلات آمنة فنشطت القوافل ... فتجدد بناء الخانات (الفنادق القديمة) وأجملها كان خان أسعد باشا بقبابه التسع . ونذكر هنا قصر العظم الذي يمثل نمط مسكن الأمراء في القرن الثالث عشر ومعه « السلاملك » الجناح المخصص للزوار الغرباء و« الحرملك » الجناح المخصص لحجراته المزينة بالترصيعات والزخارف الخشبية والسقوف المطلية .

☆ ☆ ☆

(١) التاريخ خطأ ،

الفنون التطبيقية

☐ الزجاج :

كانت دمشق على جانب كبير من الشهرة بإنتاج بعض الفنون الخاصة بها ... أدخلت الطلي والزخرف والتذهيب على صناعة الزجاج في القرن الثاني عشر الميلادي ، فأعطت هذه الصناعة مداً جديداً ، وقد قامت أصلاً في (صور) وانتقلت إلى دمشق عام (١٢٩١ م) . حيث ظلت مزدهرة إلى آخر القرن الرابع عشر . وفي عهد المماليك صارت مصر الزبون الأول للمدرسة الدمشقية حيث اشتهرت قناديل المساجد المطلية بالميناء ، وكذلك الأبواب والقوارير .

وفي القرنين الثالث عشر .. والرابع عشر ... أنتجت الكؤوس والأقداح ، والزجاجات ، وصدرت إلى أوروبا وبدأ تصنيعها هناك مع المحافظة على تسميتها بالنمط الدمشقي (جنوى) مثلاً .

☐ السيراميك (الخزفيات) :

لقد عثر على أفران عند أبواب المدينة ، تؤكد النشاط الواسع في صناعة الخزفيات في دمشق منذ أقدم العصور ، وتوجد قطع من هذه الصناعات تعود إلى القرن العاشر الميلادي مثل القدح (الكوب الفاطمي) الموجود في متحف اللوفر ، والآنية المزخرفة ذات الغطاء الأزرق . مشاغل الصيني (الخزف المزخرف) نشطت في عهد المماليك وصنعت قطعاً بيضاء رائعة . في القرنين السادس عشر والسابع عشر عرفت مشاغل الصيني الدمشقية قمة نشاطها وشهرتها ، وتميزت ألوان زخرفتها بغياب اللون الأحمر ، فظل الأزرق هو الغالب وزخرف النباتات والأزهار رُكز على البنفسج والأبيض والأخضر المظلم (الرمادي) .

□ الفنون المعدنية :

اشتهرت دمشق بتقنية عالية بترصيع الأدوات المعدنية بالذهب والفضة ، أو تغطيتها بقشرة رقيقة منهما . ومن دمشق انتقلت إلى الهند .

هناك أشياء من الحديد مثل الخوذة الدمشقية الذهبية للسلطان (بارسباي) وتأتي الأدوات البرونزية النحاسية المرصعة أو المغطاة كذلك بالفضة وهي دمشقية الأصل .

في القرن الثالث عشر بدأ الزخرف يمثل أشخاصاً وحيوانات متأثرة بفنون ما بين النهرين ثم المزهريات والأزهار الدمشقية . وأبدعت (نماذج) من السيوف صفيحته مزيج من الحديد والفولاذ المموج ، وترصيعه بالذهب وتسميته السيف الدمشقي كانت دائماً المرادف للنوع الممتاز من السيوف .

□ فن النسيج :

اشتهرت دمشق بمنسوجاتها الحريرية ، وبخاصة « البروكار » الذي داخلته حبكة ذهبية المسمّى (دمقس) والاسم ذاته يطلق على نسيج من الحرير أو الصوف مصنوع بنفس الخيوط ونفس اللون مع تشبيك وتعقيد يشكل رسوماً معينة . وحتى أيامنا هذه ما زال البروكار يحمل اسم دمشق . وإن كان حريره أصبح اصطناعياً ولا بد أيضاً من الإشارة إلى البياض المدمشق ذي الرسوم المزرودة أو تكونها اللحمة ذاتها . وقد قلدت بعض هذه الصناعات في نيقوسيا وعرفت باسم (دمقس قبرص) . كما صنعت في البندقّية البسط المعروفة باسم سجاد دمشق رسومه وديكوراته الهندسية . ويبدو أن البسط والسجاد المذكور قد نسجت في مصر على النمط السوري لا الدمشقي ، لأنه لم يعرف أن الصناعة إياها انتشرت قبلاً في دمشق بالذات .

---

(١) دمشق في دوائر المعارف العربية والعالمية ، المحامي أحمد غسّان سبانو ، ص ١٧٧ – ١٨٢ ، دار الكتاب العربي دمشق .

دمشق (١٩٤٠)
في ذاكرة زائرة فرنسية *

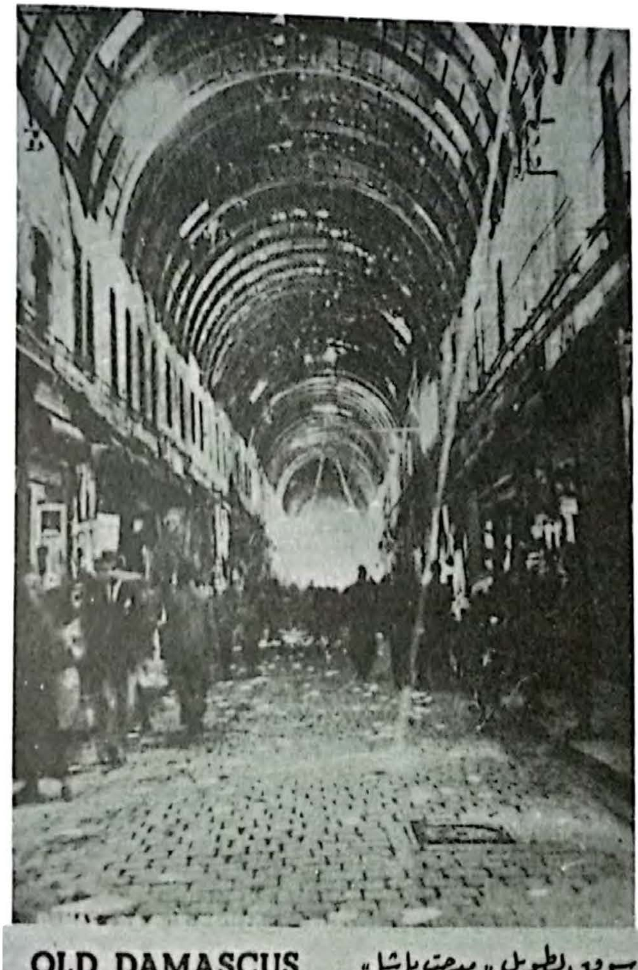

OLD DAMASCUS سوق الطويل « مدحت باشا »

دمشق ! يا عروس الصحراء التي وهبها الله سبعة أنهر لتستحم بواحد منها في كل يوم من أيام الأسبوع ! ...

دمشق أيتها المدينة الملهمة التي يكاد كل شيء فيها : يناجي ، ويتكلم ويذكّر ...

لقد عدت .. لأن قلبي تعلق بمغانيك ، وروحي امتزجت بروحك ، ولا شيء يمثل شدة شوقي إليك ، إلّا هذا السرب من الطيور الذي كان يحلق في سمائك الصافية ، فما كاد يلمح الحور الباسق في الغوطة الجميلة ، حتى انحدر إليها بلهفة وغبطة من يبحث عن أقربائه وأحبائه ، بين الأغصان الخضر وعلى حوافي الجداول المترقرقة ... أو هذه الفتاة الدمشقية التي سمعتها في القدس تغني من أعماق نفسها أغنية سكبت فيها كل حنينها إلى دمشق : « على بلدي المحبوب وديني » ! فهممت أن أقول لها : يا رفيقتي ؛ تعالي ، سنذهب معاً إلى البلد المحبوب ...

دمشق ما أسعدني بأن أجد نفسي مرة أخرى في أحضان طبيعتك الحلوة وفي مجتمعك الذي تعجبني فيه طبائع كريمة وتقاليد نبيلة ، وتربطني به ذكريات لا تنسى ! .

لقد خرجت من بعيد عودتي من فلسطين إلى أسواقك أطوف بها ، وأطلب الصور التي ألفتها ، فلم أزدد بك إلّا حباً وإعجاباً ...

كنت أرى الشرطي الموكل بإعطاء الإشارات ، يؤدي عمله بسرور ورغبة ... وذهبت إلى سوق (القباقبية) فتذكرت الساعات التي كنت أقضيها في الثرثرة مع هؤلاء الأصدقاء الطيبين ، أتعلم منهم اللغة العربية (الدارجة) ... بينما تتناثر قطع الخشب من بين أيديهم وتتطاير من كل جهة في الفضاء ... وكانوا جميعاً يبتسمون لي من خلال اللحى البيضاء بسمة الأنس والإخلاص ، اللذين تعلمت حبهما وتقديرهما في الشرق .

ومضيت بعدئذ إلى بائع « المعجنات » الذي تعودت الاختلاف إلى محله ، فدعاني إلى التذوق من مصنوعاته ـ مجاناً بالطبع ـ ، وهذه ظاهرة من ظواهر الكرم لا تجدها إلّا في الشرق ، فاعتذرت فرجاني أن أحمل معي هدية منه قطعة من الحلوى ، فاعتذرت أيضاً لأن القطعة كانت كبيرة جداً ، ولكنه قال لي : « لو استطعت يا

سيدتي أن أصنع قطعة من الحلوى عظيمة كبرج بابل ، عالية كمأذنة العروس ، لما كانت من الجمال بحيث تستحق أن تهدى إليك ولا من العظمة بحيث تعبر عن فرحي بعودتك ورؤيتك » .

ثم ذهبت إلى سوق البزورية أشتري سكاكر للأطفال الصغار ، فإذا البائع يزيد في الوزن ، فأسأله السبب فيجيبني : لا بأس بأن أساهم قليلاً في عمل إنساني بذلت له من كرمك الشيء الكثير .

بالقرب من هذا السوق تسكن إحدى جاراتي القديمات (سلوى) ، فلم أشأ أن أختم طوافي بالأسواق قبل أن أزورها ، وقد استقبلتني بشعور يمتزج فيه السرور بالفخر ، وأخبرتني حالاً أن ولداً جديداً ثامناً أسمته (محمداً) انضم إلى حلقة أولادها ، وقد جاء إلى الدنيا أثناء إقامتي في فلسطين .

وأخيراً ... اجتزت سوق (مدحت باشا) - السوق الطويلة الرومانية التي مرّ بها القديس بولس بعد أن تراءى له السيد المسيح وآمن به ، وبلغت سوق الحميدية ، معرض الأقمشة النفيسة الذي تجتمع فيه العائلات الكبيرة ، فلقيت بائعي المختار ، فأهل بي وسهل ، وبارك فيّ وبزوجي الجنرال .

فإذا سئلت : لماذا أحب دمشق ؟ أجبت : أحب دمشق من أجل هذه المظاهر اللطيفة كلها ... إن دمشق تحب أصدقائها ، فيجب أن تبادل عاطفة بعاطفة .

في عمق سوق الحميدية ، ترتفع نحو السماء مأذنة الجامع الأموي وقبته الفخمة الخضراء ولقد أخذني الشوق إلى زيارته - كما كنت أفعل قديماً - فما استطعت أن أقاوم هذه الرغبة ، ومضيت إلى صحن الجامع ثم إلى المصلى ، ووقفت عند ضريح النبي يحيى ، وهناك شعرت أن صلتي بدنيا المادة قد انقطعت وأن نفسي تحلّق في دنيا الروح[1] .

---

(١) طريق الخلاص ، آن كوله ، ص ١١٧ - ١١٩ ، منشورات وترجمة دار المرشد للطبع والنشر في دمشق ، ١٩٤٠ .

الجمال الدمشقي في نظر الغربيين

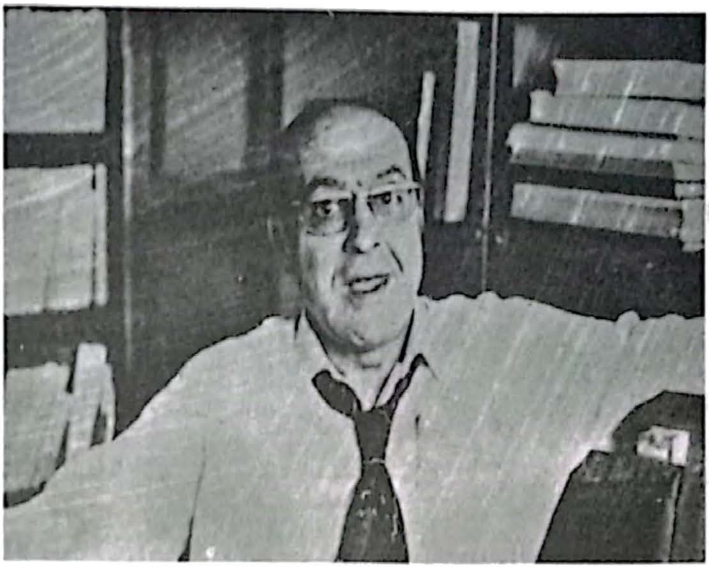

د . المنجد

يقول الأديب الدكتور صلاح الدين المنجد ، في مقال شائق له عن الجمال الدمشقي ، نشره في الخمسينات ما معناه :

منذ الزمن البعيد لهج الشعراء والرحالون بما كانوا يشاهدونه بدمشق من ألوان الجمال ، فبهر طائفة منهم الجمال الجاثم في ربوعها ورياضها وحدائقها ومغانيها ، وسحر طائفة أخرى الجمال الذي يرف في وجوه نسائها وأبنائها ، وما يتحلى به النساء والرجال معاً فيها من الصباحة والدماثة والكياسة واللطافة والذكاء .

ويبدو أن دمشق فاقت بهذا الجمال بلداناً كثيرة ، فابن بطوطة عندما زار (شيراز) تذكر ما في دمشق فقال :

« ليس في الشرق بلدة تداني دمشق في حسن أسواقها ، وبساتينها وأنهارها وحسن صور ساكنيها ... » .

وشهادة ابن بطوطة ذات شأن ، ذلك لأنه رجل رحل وطوف في البلاد ، فأتيح له أن يرى أصنافاً وأنماطاً ، في رحلته البعيدة الطويلة . وهو رجل من المغرب ، لا يتهم بالعصبية لدمشق .

وقبل ابن بطوطة بقرون زار دمشق المتوكل على الله الخليفة العباسي فعن له أن يطوف كنائس الزهاد والموضع المعروف بالفراديس . وكان معه ابن حمدون النديم . قال : « فلم يزل يستقرىء تلك الكنائس والديارات ويرى لدى بنات القسيسين وجوهاً كأنها أقمار تتثنى في تلك الأروقة والصحون ، وكلما مرّ بهن قال : ويحك أترى ما نحن فيه ، ما شاهدت مثل هذا قط » .

فلقد بهر المتوكل بالجمال الدمشقي ورغم ما كان في بغداد من القيان والحسان . ولم يستطع المتوكل أن ينكر هذه الصفة التي رآها في دمشق . ودمشق عاصمة الأمويين أعداء بني العباس .

فهاتان الشهادتان تدفعان الباحثين إلى تصديق ما ورد من الشعر في هذا الباب كقول أحد الشعراء :

تأمل دمشق إذا جئتها … بعين الرضا لا بعين الغضب
ترى جنة زخرفت للورى … تروق العيون وتشفي الكرب
بها كل ما تشتهيه النفوس … ويسبي العقول(1) ويقضي الأرب
وحور اللحاظ بها حورها … وولدانها المرد مثل اللعب

وكقول الكندي يصف حسان دمشق :

وكل خَوْد كخُوط البان إن خطرت … تضحي العيون لها جنداً و أعواناً
هيفاء لفاء معسول مقبلها … حوت به لؤلؤاً رطباً ومرجاناً
كالبدر إن سفرت عن وجهها سلبت … عقل المحب فيضحى الصب ولهاناً

(1) العقول

على أننا قد لا نصدق شهادات الشرقيين عامة : فقد يغرق الشعراء في الوصف ، وقد يحسون بالنشوة المثيرة لدى رؤيتهم جمال أهل دمشق ، وهـم دمشقيـون أو مسلمون . فلندع ما قاله هؤلاء جميعاً ، ولنر ما ذكره الغربيون الذين زاروا دمشق منذ أربعمائة سنة إلى أيامنا ، في هذا الموضوع .

وقد كان عني بجمع هذه النصوص المتعلقة بالجمال الدمشقي ، عند الغربيين الباحث الأستاذ حبيب الزيات . واستقراء هذه الشواهد يدل أن شعراءنا ورحالينا لم يكونوا يبالغون في الإشادة بجمال دمشق ، وما كانوا يتزيدون في أوصافهم ، بل كانوا يقولون ما يرون . لأن الأوصاف التي يذكرهـا الرحالـون الغربيـون هـي كالأوصاف التي يذكرها الشرقيون . وهناك اختلاف واحد بين هؤلاء وأولئك يظهر في طريقة الوصف والتشبيه .

ملكة جمال دمشق

عندمـــا نتحدث عن ملكات الجمال الاربـع ، اللواتي هبطن دمشق وما زلن فيها حتى اليوم موضع الحفـاوة والتكريم .. عندما نتحدث عنهن جدير بنا ان نذكر بالخير حضرة « صاحبة الجلالة » ملكة جمال دمشق، التي انتخبت في الصيف الماضي ملكة للجمال وجلست عـلى عرش فينوس ، انها الانسة الحسناء ليلى تيريز توما ، وتمتاز بعينين خضراوين وجمال هادىء ، وانوثة كاملة .

ملكة جمال دمشق
لعام ١٩٥٢

ففي عام (١٦٣٠ م) أي في القرن السابع عشر زار دمشق الرحال فيرمانيل ، فذكر في كتابه المسمى (الرحلة إلى إيطاليا والشرق) ما رآه وقال : « الرجال بدمشق هم أقرب إلى الطول . أما النساء فهن غاية في الجمال ... » .

ونجد في مذكرات الشوفاليه دارفيو عام (١٦٦٠ م) عن أهل دمشق ما يلي : « أهل دمشق حسان بيض الألوان مع ملاحة التكوين . ويغلب عليهم الذكاء ودقة الفهم والحِذْق والخداع ، ولكنهم على غاية من الأدب مع من يحسن معاشرتهم » .

وفي القرن الثامن عشر زار دمشق من الرحالين بوكوك ، وفولني ، ودومينكو ، في فترات مختلفة . فكلهم أشادوا بالجمال الدمشقي .

يقول بوكوك في كتابه المسمى (رحلة ريشار بوكوك) : « لأهل دمشق طبيعة في الذكاء ، ولهم في مقتبل العمر حسن عجب لكنه لا يلبث أن يزول متى بلغوا الكهولة لسوء تأثير الحر فيهم وكثرة استحمامهم » .

أما فولني فيقول في رحلته إلى سورية ومصر أنه يبالغ في وصف صباحة نساء دمشق وطرابلس لبياض بشرتهن وحسن خلقهن ... ولا سبيل إلى تحقق هذه الشهرة لأن النقاب الذي يستترن به عادة لا يمكن أحداً من النظر إليهن . وهكذا سمع فولني بالصباحة الدمشقية وبين نوعها . ولكن النقاب يومئذ حال دون تحققه منها .

أما دومينكو فقد استطاع أن يصف ويرى فلقد رأى ما لم يره من غيره . يقول : « كثيرات من نساء دمشق يستر رأسهن ووجهن النقاب كنساء المغرب ، ولكنهن يضعن هذا القناع ويرفعنه متى شئن . ولذلك تيسر لي أن أتحقق عياناً أن نساء دمشق بالإجمال جميلات ، وأن بينهن ذوات حسن فائق . والغالب عليهن بياض البشرة ونعومتها ، وزهاء اللون . ولا يشاهد بينهن صفراوات كما في القدس وجزيرة العرب ولا شديدات السمرة المشربة بالسواد كنساء أفريقية وليس في أولادهن من هو أعمش العين كأولاد الإسكندرية ، ولا يرى بين الرجال من هو هزيل ناحل ، بل من النساء والأولاد من يشبه حور الجنة . والرجال شديدو البنية ، وضيؤ الطلعة ، متناسبو

الأعضاء وبالإجمال أقوياء » .

ودومينكو هذا رحّالة إسباني ، دخل الإسلام وتسمى باسم علي بك العباسي . وطبعت رحلته في باريس عام (١٨١٤ م) . وفي القرن التاسع عشر زار دمشق رحّالون كثيرون منهم : آدم روسو ، ولامارتين ، وسمر ، وكلهم أجمعوا على الإشادة بالجمال الدمشقي .

وصف روسو جمال النساء النصرانيات بدمشق فقال :

« جمال نساء دمشق وفتياتها النصرانيات لا تقع العين على مثله ، بل يفوق كل تصور ، فهو الجمال المتمنى الذي يعجز القلم عن وصفه . والنساء في هذه المدينة يحفظن طويلاً نضارتهن وربّ أم نظيرة لابنتها في الحسن مع أنها لم تتجاوز خمس عشرة سنة . وهنّ يتزوجن بين الثانية عشرة والثالثة عشرة من العمر .

أما لامارتين في كتابه (رحلة إلى الشرق) ، فيصف النساء وصف شاعر يقول : « مهما كنت أتصور مبلغ جمال السوريات ، ومهما تذكرت صباحة نساء روما وأثينا فإن منظر النساء والفتيات الروميات بدمشق يفوق كل توهم . وقد شاهدنا في كل مكان تقريباً وجوهاً لم يتخيل المصور الأوروبي قط شبهاً لها ، وعيوناً فيها نور في لون لازوردي تنبعث منه أشعة كأنها الخمائل الغضة . لم أر في حياتي أشد توقداً منها في عيني امرأة . تزينها ملامح غاية في الرقة والصفاء تعجز أحذق الأيدي وألطفها عن محاكاتها . وتشف عنها بشرة ناعمة بهية تتضاءل عندها أزهى ألوان الورد . وتقصر عن إدراك نضارتها ورونقها . وتزين كل فم ثنايا عذاب يحلو فيها التبسم والنطق . ويتردد من خلالها صوت رقيق شج يرن صداه رنين الفضة بحيث الحسن فيها ، وتعادلت النسب والمزايا فإذا تحدثن نطقن بكل وقار ولطف بغير ارتباك كأنهن ألفن إعجاب الأبصار بهن . ولذلك قلما يفارقهن الجمال في مثل هذه البيئة التي تصون المحاسن ، وفي مثل حياتهن البيتية حيث تسود الراحة والسلامة بمعزل عن الأهواء والشهوات التي تفسد النفوس والأجساد .

ولهن زي عجيب يجمع بين اللباقة والرصانة ، مما لا يشاهد مثله في سائر الشرق ، فيبقى الرأس تكلله الضفائر الطول دائرة به مزدانة بالأزهار ، ثم تتدلى من جهتي العنق ساقطة فوق العاتق ، وقد رصع الشعر بقطع من النقود الذهبية ، وأسلاك من اللؤلؤ ويلوح الصدر من تحت معطف قصير من الوشي المثقل بالفضة أو بالذهب ، في كمين طويلين ، فوق سراويل واسع أبيض مثنى يكسو الساق حتى القدم وفوق ذلك كله ثوب من الحرير الفاخر ، وكنت لا أستطيع أن أصرف نظري لحظة عن مثل هؤلاء النساء الفاتنات ويلذ لي إطالة الزيارة لهن والتحدث إليهن . وكان الحديث يدور في الغالب على مصطلحات أوروبا وأزيائها وعادات النساء الغربيات و لم يبد لي قط أنهن كنّ يغبطن نساءنا أو يحسدنهن على شيء » .

ثم ينهي لامارتين وصفه بقوله :

الآنسة ريموند دقو ممثلة سورية في المهرجان العالمي للجمال الذي أقيم في لندن عام ١٩٦٥

« إن من جالس مثل هؤلاء النسوة وأعجب بظرفهن ومنطقهن وأدبهن الغريزي ، وما اتصفن به من المجاملة وسلامة القلب والنفس التي تحفظ دائماً في المعيشة الأهلية ، يتبين له أنهن غنيات عن كل حسد لنسائنا المدنيات اللواتي يعرفن كل شيء خلا ما يقيم سعادة أسرتهن » .

وفي السنة التي زار فيها لامارتين دمشق ، زارها قس انكليزي اسمه سمر فوصف النساء أيضاً فإذا هو وصف مملوء بالإعجاب قال :

« نساء دمشق قصار ولكنهن فاتنات الحسن . ولهن شعور فاحمة لامعة ، وألوان

عايدة القضماني الفائزة بالمرتبة الثانية في مسابقة ملكات الجمال تصبح ملكة جمال الجمهورية العربية المتحدة (أيام الوحدة السورية ــ المصرية) عام ١٩٥٩[1]

(١) المصور العدد (١٨٠٧) ٢٩ أيار (مايو) ١٩٥٩ .

مشرقة ، وعيون فتانة تبهر الناظر فلا يستطيع اتقاء سحرها دون أن يصيبه منها سهم . ولقد رأيت فتاة لها شعر أسود فاحم متدلٍ على الخصر ، يغطي عاتقها الأبيض كالمرمر وهو يتألق تألق زهر الخزامي أو السوسن . ولها عينان نجلاوان فاترتان أشدّ زرقة من الفيروز وأضوأ من جوهر جمشيد . ولو قيس الجلنار إلى حمرة خدودها لكان أقل إشراقاً » .

فهذا بعض (١)
فهذه بعض نصوص من النصوص التي جمعها الباحث الزيات . وهي إذا قيست بالأوصاف التي قالها رحّالونا وشعراؤنا نجدها موافقة لها . فالإجماع على صباحة النساء الدمشقيات وقوة الرجال الدماشقة موجود فيها .

جمال شامي معاصر

(١) الأصح فهذا شيءٌ من النصوص

الأديب المصري الكبير يوسف السباعي يهنىء نبيلة فرعون بعد انتخابها ملكة للجمال في دمشق عام ١٩٥٩

قصة القهوة .. وأدب المقاهي

تحتل تجارة البن مركزاً مرموقاً في التجارة . ففي كل يوم يستهلك منها العالم لا أقل من ٤٦ مليون غالون ، ويعمل في زراعتها .. وتوضيبها وبيعها ملايين الناس ... لتقدم إليك وإلى الملايين غيرك شراباً شهياً مستساغ ...

والقهوة ... التي هي اليوم منتشرة في كل مكان على سطح الكرة الأرضية ... كانت غير معروفة وغير منتشرة في الماضي . ولذلك عدة أسباب منها أن الحكام ورجال الدين كثيراً ما حاربوا انتشارها ...

لا يعرف تماماً متى اكتشف البن ولا أين اكتشف ... وقد رويت عنها عشرات الأقاصيص .

تقول إحدى الروايات أن راعياً عربياً كان يرعى قطيعه ، فلاحظ أن الماعز تتمايل في سيرها يمنة ويسرة كأنها سكرى ... وتبين له بعد البحث أن هذا حدث لها إثر

رعيها عشبة جديدة عرفوا أنها نبتة القهوة (١) ...

حوالي عام (١٦٠٠ م) انتقلت عادة شرب القهوة إلى إيطاليا ، ثم إلى النمسا . أما كيف عرفها النمساويون فلذلك قصة طريفة ... (٢)

فقد اجتاح الأتراك – وهم شعب مغرم بالقهوة – النمسا في عام ١٨٦٣ وحاصروا فيينا . واشتد الحصار حتى كاد الأمل يقطع من إنقاذ العاصمة .. لكن أحد المغامرين النمساويين ويدعى « كولتشزكي » قام بعمل مجيد وأنقذ المدينة ... فقدمت له بلاده على سبيل الجائزة مئات من أكياس البن غنمتها من الأتراك ... فأنشأ أول مقهى ... وسرعان ما انتشرت عادة إنشاء المقاهي في أوروبا بأجمعها ...

وفي عام (١٦٥٠ م) افتتح أول مقهى في أكسفورد ببريطانيا ... وفي مدى خمسين سنة بلغ عدد المقاهي أكثر من ألف . فصار الناس يجتمعون فيها لا لاحتساء القهوة وحسب بل لتبادل الآراء ورواية الأنباء .

فلم يرق الأمر للملك شارل الثاني ، فإن جو المقاهي صار يعبق أحياناً بالأفكار المتطرفة الجريئة ... وفي عام (١٦٧٥ م) أغلقت الحكومة البريطانية جميع المقاهي

(١) القهوة لا تخدر بل تنبه

(٢) أسئلة في التاريخ .

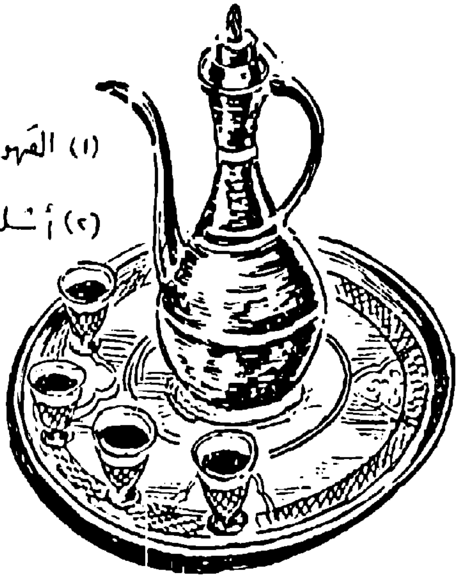

بمرسوم ملكي ... بحجة أنها مخلة بالأمن ... ومعادية للملك .

في هذه الأثناء كانت القهوة تنتشر في أوروبا ... وعلى مر الأيام انتشرت زراعتها في العالم انتشاراً واسعاً .

□ مشرق المقاهي :

عانى مشرق المقاهي بعض الشيء من الوصف المبالغ فيه على ألسنة رحّالة القرون

الماضية من الأوروبيين ... دفع مشرق المقاهي ثمن هذه الأساطير المنمقة . راح الناس يفضلون عنها المقاهي (البالزاكية) التي أصبحت فجأة أكثر واقعية بالنسبة لهم . ولم تخرج الصورة من ركوة علاء الدين إلّا مجسدة بأفكار ... وانطلاقاً من مذاهب إلى مدارس راح المفكرون يوسمون هذه المقاهي بسمة باريسية .. حانة أو مشرب ،

أصبح المقهى الصغير مؤسسة في زاوية الشارع . واستخدمت القهوة دائماً كشعار ولكن أدخلت إلى جانبها المرطبات والمشروبات بحذاقة إلى جانب الكريما المثلجة والبوظة ... بينما ظلت مقاهينا الشرقية التي لم تخضع لتأثير الموجات الأدبية ، توزع دخانها ومشروبها المنعش[1] .

□ في مقهى الهافانا :

منذ مدة غير طويلة من الزمن ... قام أحد الأذكياء بشراء مقهى الهافانا العريق ، وقسمه إلى محلات تجارية تبيع الثياب النسائية والرجالية ، والأحذية والثياب الداخلية ...

شعر الأشخاص الذين يعرفون تاريخ هذا المقهى ، الذي كان يتردد عليه الأدباء ... وأهل السياسة ... والظرفاء .. بالاستياء من هذا التصرف غير الحضاري ، وتمنوا في قرارة أعماقهم ، لو تتدخل إحدى الجهات الرسمية ، وتحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وترجع الهافانا كما كان في الماضي القريب ! وبالفعل تدخلت الدولة ... وأعادت افتتاح المقهى الدمشقي العريق مرة ثانية وبشكل لائق .

يذكر الصحافي المخضرم الأستاذ عبد الله الشيتي ، أن العديد من الشبان ممن أدركتهم حرفة الأدب ، أو هوايته ، كانوا يتسابقون للجلوس في الهافانا ، ليس لتدخين (النارجيلة) ، أو لعب (الكونكان) و (البوكر) ، أو قراءة الصحف اليومية ، إنما من أجل أن يسمع واحدهم اسمه عبر (ميكرفون) المقهى ينادي عليه النادل المكلف بوظيفة (مذيع) ، وصوته أقرب إلى صوت عجلات (طنبر المازوت) ...

وكان المنادى على اسمه يشعر بالزهو والغرور ، وهو يسير بين روّاد المقهى منتصب القامة ... واثق الخطوة يمشي ملكاً ... وحقيقة الأمر أن الواحد من هؤلاء ، كان يكلف بعض معارفه بأن يهتف إلى الهافانا ويسأل عنه مسبوقاً اسمه الكريم بلقب :

(١) من نشرة معرض « فنون المقاهي » و « المقاهي الأدبية » الذي أقيم بمبادرة طيبة من المركز الثقافي الفرنسي بدمشق بتاريخ ١٩٩١/١/١٥ .

الشاعر الكبير ... أو الناقد الحر الجريء ...

ومن المقالب الطريفة ... قيام البعض بمهاتفة الهافانا والسؤال عن مصطفى لطفي المنفلوطي ، أو الأستاذ أبو الطيب المتنبي ، أو المسيو جان بول سارتر وزميله موباسان ... وكان المذيع يلفظ الأسماء بطريقة مغلوطة ، وهو يحسب أن المنادى عليهم من أحياء أو أموات هم من زبائن المقهى ... لذلك لم يكن غريباً أن تسمع المذيع يقول :

- تفضل جنابك يا أخ بشار بن برد احكي على التليفون !!! .

بقي أن نذكر بأن (الميكرفون) حين يتعطل كان يتبرع أكثر من متأدب لإصلاحه على حسابه الخاص ، فقد كان العزاء الوحيد لأدباء الظل .

☆ ☆ ☆

من الأمثال الشعبية في الديار الشامية

- الأكل على قد المحبة .
- ابعد عن الشر وغني له .
- أبشع من القرد ما مسخ الله .
- اجت والله جابها .
- آخر العنقود سكر معقود .
- اضرب الحديد وهو حام .
- إذا حضرت الملائكة هربت الشياطين .
- إذا كثرت الأيادي انحرقت الطبخة .
- إذا بدك تحيّره خيّره .
- اشتغل بمصرية وحاسب البطّال .
- اسأل مجرب ولا تسأل طبيب .
- الناس مخباية بثيابها .

- أصابع إيدك ما هي كلها سوا .
- اعمل خير وارم بالبحر .
- اقطع راس القط من أول يوم .
- الله يطعمك حجة والناس راجعة .
- اللي على باله لا يحرم حاله .
- امشي في جنازة ولا تمشي في جازة .
- أمل إبليس في الجنة .
- بوس الأيادي ضحك على اللحى .
- السكوت علامة الرضا .
- صدر البيت لكم والعتبة لنا .
- صاحبك .. صديقك .. حبيبك .. صوب الجيبة لا تقرب .
- ضرب الحبيب زبيب .

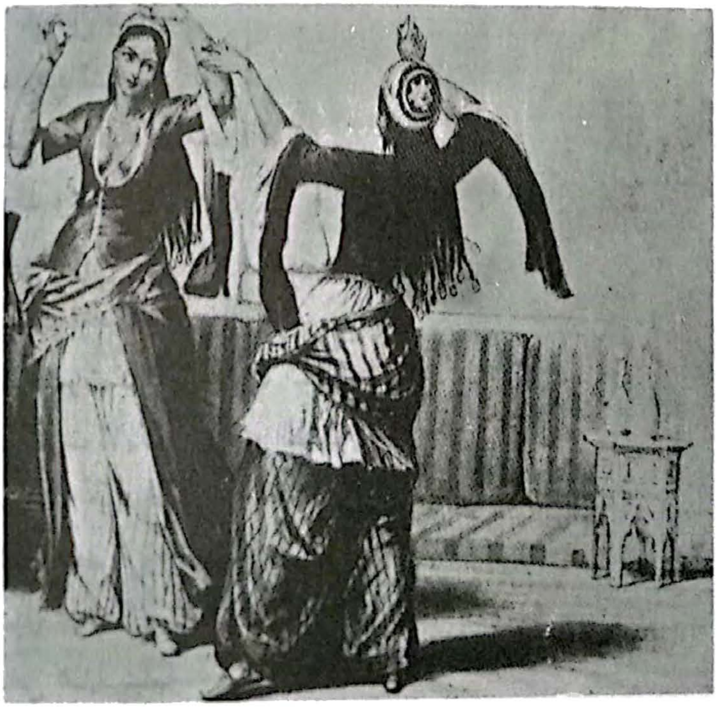

- طنش تعش .
- عايش من قلة الموت .
- فاس ونزلت على الراس .
- نيال الأطرش .
- النوم سلطان[1] .
- الصيت صيت وُزَزْ والعيشة عيشة نوَر .
- مثل الحية يقرص ويخبي رأسه .
- شو أطيب من العسل خلّ بلاش .
- لا تعوّد شحاد على باب دارك .
- قبل ما تأكل رز وباذنجان غطي ظهرك يا عريان .
- حلّاق فتح ، بأقرع استفتح .
- نفسه مثل المقبرة لا ترد ميتاً .
- حط أصبعك بعينك مثل ما توجعك توجع غيرك .
- بقيتْ لا مطلقة ولا معلقة .
- القرعة تفاخر بشعر بنت خالتها .
- اللي يصبر يأكل طيب .
- طبل يجمعهم وعصاية تفرقهم[2] .

☆ ☆ ☆

(١) الحكم والأمثال الشعبية في الديار الشامية ، محمد سعيد مبيض ، دار الثقافة — الدوحة .

(٢) دمشق في مطلع القرن العشرين ، أحمد حلمي العلّاف ، تقديم وتعليق الأستاذ علي جميل نعيسة

المناديات الدمشقية في الأثمار الشامية

يقول الأب سليمان غانم اليسوعي في مقال شائق نشره في مجلة (المشرق) ما معناه :

وهب الخالق المنّان دمشق الفيحاء وقراها المجاورة أرضاً مخصبة وماءً غزيراً وهواءً

سليماً وشماً محيية . فكثرت فيها الأشجار المثمرة والفواكه اللذيذة وأحرار البقول والرياحين العطرة التي يطيب للأذن سماع ذكرها ووصفها كما يطيب للسان المناداة باسمها والعين حسن منظرها وللشم شذا ريحها ولليد نعومة ملمسها وللذوق حلاوة طعمها . فيتمتع سكانها بهذه العطايا الفاخرة ...

أما بعد فإن الباعث لوضع هذه المقالة - والكلام ما يزال للأب سليمان غانم - هو سماعي الباعة الجوّالين ينادي كل منهم بمبيعه في أزقة دمشق فيمرون كل يوم وكل النهار رافعين أصواتهم يتغنّون بنغم ونبرة وعبارات تميزها محمولهم عن سواه وتشوق السامعين إلى مشتراه فجمعت من مناداياتهم ما حوى نكتة أو ملحة تفكيهاً للباحثين في العوائد المحلية .

التفاح : كل تفاحة خدّ يا تفاح - مال الزبداني يا جناني - مال داريا يا سكّري - مال الزينبية محمّر يا ناعم - بخَز الشوره (المنديل) مال ببيلا يا جناني .

وقد جاء ذكر التفاح في سفر الأمثال ونشيد الأناشيد : (الكلام المنطوق به في أوانه تفاح من ذهب في سلال من فضة) .

التوت : يا شامي على الله الشفا - شامي يا عوافية - حلواني يا توت - بارد وحلو يا توت - أصل الحلاوة يا توت - ملبّس يا توت - بلح يا توت - نازل عليك الندى يا توت .

السفرجل : قدّ البطيخة يا سفرجل - للظلطة يا سفرجل - معقود السفرجل يا بنات - بلدي يا سفرجل - مال الهامة يا بنات - للملك يا سفرجل - أطيب من خاص عثماني يا سفرجل - شو بدي استذكر منك كل عضة بغصّة .

الصبّار : جبلية يا ناهية - مال الجبل يا حلوة - صبّارة حلوة يا ناهية حلوة نعابل قلبك - كبّب - كوساية مقلية يا حلوة .

اللوز : عقابية يا عوجا ـ كبرت هالعوجا ـ صارت خيار هالعوجا .

البرتقال : من صيدا يا برتقال ـ من يافا يا برتقال ـ يا الي استوى هالبردقان ـ طاب وحلي هالبردقان ـ أطيب من البقلاوة هالبردقان ـ دشروا الثمورة واجوا أكلوا منه هالبردقان ـ تنتين بتلاتة يا بردقان .

الحامض : بلدي يا ليمون ـ طيب يا حامض ـ مال الحاكورة طيب .

الكبّاد : للظلطة يا كبّاد .

النارنج : عمّر الكركة عمّر .

يوسف أفندي : أكل الوزراء يا أفندي ـ يوسف أفندي خذ من عندي ـ قلبه أحمر يوسف أفندي ـ طلع على الأوضة لبس الموضة .

المشمش : يالله عَلْحموي ـ عوّامة مقطرة هالمشمش ـ مال جوبر يا أبو البلدي ـ يا حلاوته هالقمر (هالقمردين) نقوع (أو منقوع) الصحن بمتليك ـ وينادون في آخر موسمه : تودّع من هالمشمش الحموي تودّع .

الزيتون : دان يا زيتون ـ يا موّانة عالزيتون .

العنب : يا مال داريا يا زيني ـ عنب الزين دوالي دخلك يا والي ـ مال دوما هالأحمر ـ دراقن هالعنب الأحمر ـ الأحمر دبّاس والزيني ألماس ـ هذا حلواني بعلبك ـ هذا حلواني يا معلّل أكله ـ حطّ كزلك (الكزلك العوينات) وتعا شوف هالعنب حطّ ـ تودّع من العنب تودّع ـ دبس العنب هدوا خيامه يا حينه يخلص .

ويقولون في أكله : حبّه وحبّه أكل العنب . تنتين تنتين حشمه وأدب . تلاتة تلاتة أكل الدبب .

وينادون على الزبيب : دربلي يا زبيب . يا موّانة عالزبيب ـ بلا بزر يا قشلميش[1] .

□ عمرك قصير يا حموي :

يحكى على ذمة الراوي ... أن أحد الباعة الجوّالين .. كان ينادي على المشمش بعبارة :

ـ عمرك قصير يا حموي ! .

ـ آخر أيامك يا حموي ؟! .

وكان حاكم سورية ـ آنذاك ـ العقيد المرحوم أديب الشيشكلي (١٩٠٩ ـ ١٩٦٤ م) ، وهو من مواليد مدينة حماه السورية .

ويبدو أن أحد أفراد (المكتب الثاني) سمع نداءات البائع ، فاعتقد أن البائع المتهور ، يغمز من قناة وهيبة رئيس الدولة ... فألقى القبض عليه موجوداً ، وحُجز الحمار الهزيل ، لدى أمانة العاصمة ، وصودرت سلال المشمش الحموي .

وظل البائع السيء الطالع رهن الاعتقال والتحقيق المستمر عدة أشهر .. بهدف معرفة اسم الجهة التي طلبت منه التفوه بمثل هذه العبارات الخطيرة التي يُراد منها التشويش على العهد الجديد !! .

وفي كل مرة كان البائع المسكين يقسم بالله ... وبرسوله ... وملائكته ... أنه لم يكن يقصد الإساءة لشخص الحاكم . بل الموقف برمته لا يخرج عن دائرة دعوة الناس إلى شراء المشمش الحموي اللذيذ .

لكن المحقق العتيد لم يصدقه .. وأخيراً أُطلق سراح البائع بعد أن خرج الزعيم الشيشكلي مطروداً من سورية ، بعد أن أجبر على الاستقالة بتاريخ ٢٥ شباط (فبراير) عام ١٩٥٤ .

---

(١) من كتاب دمشق مقالات مجموعة ، ص ١٦١ وما بعد ، المحامي أحمد غسان سبانو ، دار قتيبة ـ دمشق .

البيت الدمشقي
بين القديم والحديث

المهندس صبحي كحالة ــ إلى اليسار ــ وبجانبه مؤلف الكتاب هاني الخير [illegible]
وأخيراً الدكتور فيصل عبد الله ــ الصورة ملتقطة عام ١٩٧٤

للبيت الدمشقي روعة ما فتئت تستهوي الكثيرين وتفتن لبهم . وقلّ ممن أتيحت لهم متعة قضاء مدة من حياتهم في رحاب أجوائه السحرية من لا يغلب عليهم الحنين بين كل حين وحين ، للعودة إليها والاستمتاع بمفاتنها . فترى بعضهم كلما حدثوك عن هذا العمران الحديث النامي في مناطق دمشق الجديدة ، أعربوا لك عن حسرتهم في أن طراز هذا البناء الطاغي على مدينتهم اليوم ، فيأبى لهم في طابع البناء القديم ويفقدهم مميزاته ومزاياه . ويغطي على كل ما عرفوه في البيت الدمشقي القديم من

روعة أخاذة وجمال ساحر . وتسمعهم يتساءلون بحرارة ما بال مهندسينا والمسؤولين عن توجه العمران في مدينتنا ، يذهبون بأبنيتنا ومنازلنا هذا المذهب الغريب عنا فلا يرعون القديم ولا يحفظون لتراث الماضي قدسيته .

وللإجابة على هذا التساؤل يبدو من الضروري أن نستبين الفوارق والمميزات الرئيسة ، التي يتسم بها البيت الدمشقي القديم بالنسبة للبيت الدمشقي الحديث ليمكننا في ضوء هذه الفوارق والخصائص المتميزة استجلاء الدوافع المادية والعوامل الإجتماعية والفنية والاقتصادية التي وجهت عمراننا المتطور عبر القرون بين ما كان عليه في الماضي وما هو عليه اليوم .. ومن الممكن هنا تلخيص البارز في هذه الفوارق والمميزات في ثلاثة وجوه .

أولها : إن البيت الدمشقي القديم مغلق من خارجه . مكشوف في داخله . تحسب نفسك وأنت تقصده بين الأزقة الضيقة الملتوية في المدينة القديمة أنك أمام جدران شوهاء صماء موحدة تحجب من دونها وعلى من يعيش خلفها الشمس المشرقة والنور الساطع والحياة الرغيدة . ولكنك لا تكاد تتبين سبيلك إلى داخلها حتى تجد نفسك أمام فناء رحيب تتوسطه بركة تتدفق منها المياه ، ويحيط به الغرف الواسعة والقاعات الفسيحة ، والأشجار الباسقة ، والعرائش ، وأصص الزهور ، وترى البيت بسعته وتنسيقه ومحتوياته مستوفي لكل متطلبات الصحة والراحة ، وتلقى فيه الشمس ساطعة والنور وافراً وأسباب الحياة الرغيدة الهادئة مستكملة ومتوفرة .

وأما البيت الحديث فعلى العكس من القديم هو مغلق في داخله مكشوف من خارجه . تطل حياة الأسرة فيه على العالم الخارجي من خلال شرفته ونوافذه . وترى البناء محاطاً بالحدائق والساحات معرضاً من جهاته للنور والشمس والهواء . وبدلاً من أن ينفرد ساكنوه وحدهم بالاستمتاع بما فيه من جمال ومحاسن ، تراه يعرض كل ما يسبغه عليه مهندسوه وبناؤه من جمال التصميم لعين الجمهور والدور المجاورة ، فيتبادل معها المنفعة والمتعة ويضفي على المدينة بذلك جمالاً ما كان ليظهر في أزقة المدينة القديمة المظلمة في الماضي .

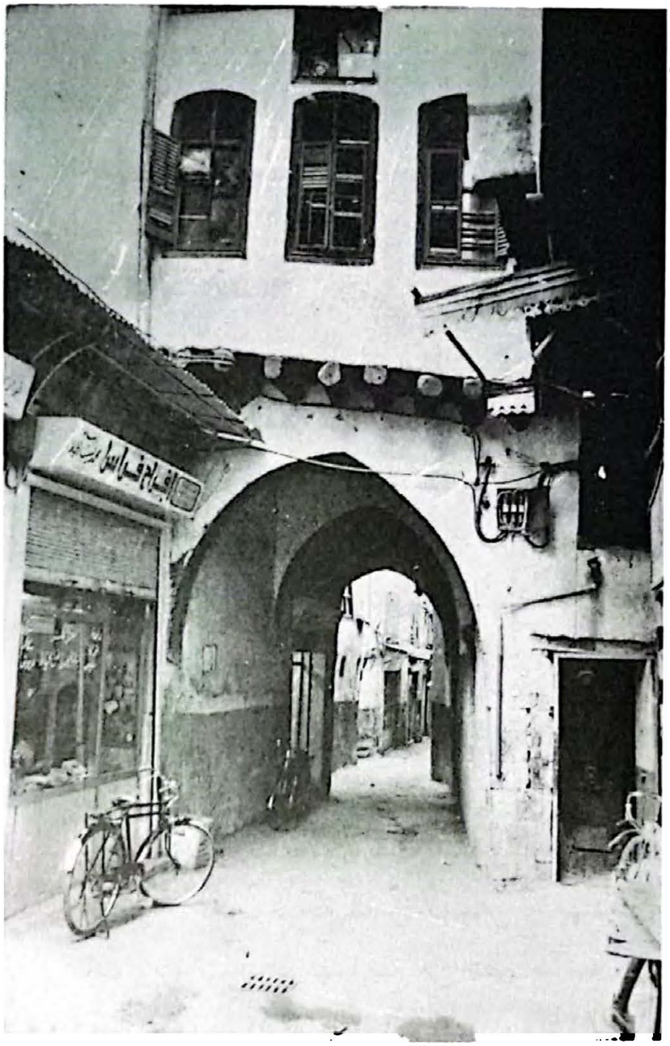

حارة دمشقية

وثالي : هذه الفوارق البارزة هي ما كان زخرفة البيت الدمشقي القديم من وفرة في الزخارف والتزيينات الرائعة ، سواء منها الرخامية المنوعة الأشكال والمتعددة الألوان المستعملة في أقنية الدور وأحواض المياه والقاعات ومساطب الجلوس ، والخشبية منها المستعملة في إكساء السقوف والجدران والمطلية بأجمل الألوان ...

وبأنواع الكتابات والرسوم والخطوط التزيينية الجميلة والمستوحاة بأشكالها وتفاصيلها من روح الفن العربي الأصيل .

وأما البيت الحديث فتراه يتجه نحو البساطة النسبية في الزخرفة والتزيين وتراه يجمع نحو الإستفادة من شتى المواد والأشكال الفنية الحديثة الملائمة لهذه الغايات ، دون إغراق في التفاصيل أو تعقيد في التعبير .

وأما ثالث : هذه الفوارق الرئيسية بين البيت الدمشقي القديم والبيت الحديث ، فنجده واضحاً في استبدال البيت القديم بأرضه وبناءه لعائلة واحدة كانت على الأغلب تجمع الأب والأبناء والأحفاد وأسرهم تحت سقف واحد . وفي إتاحة لتلك العائلة القاطنة ضمن جدرانه المغلقة متعة الانعزال والإنفراد بحياتها ومشاكلها عن مزعجات الجوار التي يشكو منها أكثر قاطني الدور الحديثة في الأبنية المشتركة المتعددة الطوابق الشائعة بناءها في دمشق اليوم .

وإن دراسة علمية لهذه الخصائص والفوارق لتوضح بجلاء أن الأسباب والبواعث هذا التطور الشامل في شكل وتصميم البيت الدمشقي بين طراز قديم استمر الالتزام به قروناً طويلة ، وطراز جديد بدأ ينمو ويتسع منذ أوائل الربع الثاني لهذا القرن ، لأعمق في جذورها من أن تكون نتيجة لمبادرة مهندس أو مهندسين ، وأبعد غوراً من أن تتأثر برغبات ونزوات أفراد مهما بلغ من عظيم شأنهم ، إنما هناك عوامل إجتماعية وفنية واقتصادية عميقة قد تفاعلت في الماضي ، وما زالت تتفاعل في صميم حياتنا الحالية اليوم . فوجهت عمارتنا هذا الإتجاه الجديد وفرضت علينا التخلي عما كنا نستسيغه من طراز بناء قديم .

فمن الوجهة الاجتماعية مثلاً : ترى أن مظاهر مجتمع القرون الوسطى التي ظلت سائدة في حياة الدمشقيين حتى مطلع هذا القرن ، قد تعرضت لتطور بليغ إثر الحرب العالمية الأولى ، والحرب العالمية الثانية ، حيث هزتا العالم خلال نصفه الأول . ولعلّ المتغيرات الهامة التي طرأت على أوضاع المرأة في المجتمع السوري ، والتبدلات

ساحة عدنان المالكي بدمشق

الأساسية التي حدثت في طراز معيشتها وأسلوب حياتها ، كان لها أعمق الأثر في تغيير طراز البيت الدمشقي ، بما يتلاءم مع هذا التطور الطبيعي ، بل ويمكننا القول : إن البيت الدمشقي كان وما زال في كل زمن السجل الصادق الذي يعكس على صفحاته الصورة الحقيقية لتطور مركز المرأة الدمشقية في حياة مجتمع تلك الفترة من الزمن .

وإن كل خطوة تقدمية كانت المرأة الدمشقية تخطوها في تطوير وضعها الإجتماعي ، كان لا بد أن تتبعها خطوة موازية في تصميم البيت الدمشقي . ففي الوقت الذي كانت المرأة الدمشقية فيه متحجبة خارج بيتها طليقة داخله ، ظل بيتها مثلها متحجباً مغلقاً في خارجه طليقاً مكشوفاً في داخله . وكان لا بد من إدخال البراني (السلاملك) والجواني (الحرملك) في تصميمه ليتلاءم مع متطلبات الإنفصال الكامل بين مجتمعي الرجل والمرأة السائد في الحياة الدمشقية يومذاك .

وعندما بدأت المرأة في العصور الأولى من هذا القرن تخفف من كثافة برقعها ، وتبدي بعض زينتها وأخذت مع السنين تتجه نحو التحرر التدريجي والانعتاق من التقاليد . رأيت البيت الدمشقي في الأحياء الجديدة وقتئذ ، المهاجرين ، وبستان الرئيس ، والحلبوني ، وغيرها .. يساير تطورها فيكشف عن وجهه تدريجياً ، ويعني بزينته ومنظره الخارجي ، يفتح النوافذ للشارع ويبرز الشرفات ، فيفسح المجال للمرأة أن تطل منها على العالم لتستنشق عبير الحياة ولو لمحات خاطفة .

وعندما خطت المرأة الدمشقية في النصف الثاني من هذا القرن ترمي حجابها وتسفر عن وجهها وتنطلق محطمة قيودها ، كان لا بدّ للبيت الدمشقي أن يتبع هذه الخطوات الجريئة مثلها فيسفر عن وجهه كاملاً وينطلق من قيوده . وكان لا بدّ للحياة فيه أن تنتقل من داخله إلى غرفه الأمامية وأن تقوم الشرفات الخارجية مقام فناء الدار الداخلي فيشترك بالاستمتاع بها الرجل والمرأة سواء بسواء .

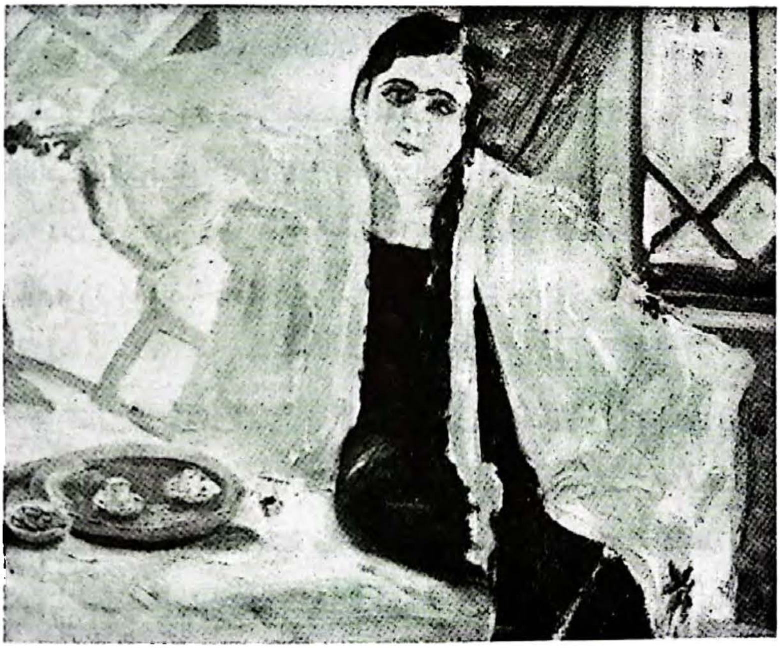

قهوة الصباح للفنان الكبير ميشيل كرشه : (١٩٠٠ — ١٩٧٣) من مقتنيات المتحف الوطني بدمشق

ومن ثم فقد تطورت حياة العائلة الدمشقية بين الماضي والحاضر تطوراً جذرياً . فقد كان البيت السوري مهيئاً في الماضي لأن يجمع شملها أصولاً وفروعاً تحت سقف واحد . وقد كان البيت الواحد يضم بين جدرانه المغلقة الجد والابن والأبناء والأحفاد ، ويفرد للمتزوجين منهم أجنحة خاصة في الدار ، يستظلون كلهم تحت رعاية عميد العائلة الأكبر ويخضعون لتوجيهاته . وأما اليوم فقد تبدل الحال بكيان العائلة الدمشقية غير الحال عن مراجعة الآباء والأمهات ، وكان لا بد لهذه الانعزالية الزوجية . وانفرط عقدها وبات الشباب يؤثرون العزلة بحياتهم الزوجية في أن تترك أثرها في توجيه البناء الدمشقي الحديث اتجاهه الحالي ، فتجعل تصميمه ومساحته أكثر انسجاماً مع حاجات الشباب وعائلاتهم الصغيرة .

وثمة عوامل اقتصادية وفنية أخرى كان لها تأثير مباشر على تعديل طراز البيت الدمشقي وتكييف تصميمه سأكتفي بالإشارة العابرة إلى بعض النواحي الهامة منها . فقد كان البناؤون القدامى يعتمدون مواد أولية محلية في بناء الجدران ومد السقوف .

وكان منظر حوامل السقوف الخشبية جديراً بالإخفاء والتغطية ولذلك كان من المعقول أن يلجأوا إلى إكسائها بتلك الستائر الخشبية المزركشة وأن يتنافس الميسورون منهم على تزيينها بشتى أنواع الطلاء والرسوم ليبين كل منهم بما يملك من نفائس الفن وبدائع الجمال . وكانت قيمة العمل من الرخص بحيث لم تشكل لديهم يومذاك إلا نفقة يسيرة من المال . فكان من السهل عليهم لهذا البيت السخاء بالإنفاق على الزخرفة والنقوش .

وكانت أثمان الأراضي المعدة للبناء زهيدة السعر . ولم تكن لتحد في التوسيع أو التصرف بالبناء عليها أية قيود أو أنظمة عمرانية أو دوائر فنية تفرض رقابتها عليهم وتقييد من حولهم . وكان متاحاً لكل مالك منهم أن يتصرف ببناء داره وفقاً لما يحلو له وبالسعة التي تساعده إمكاناته ونفوذه على فرض سلطانه عليها . ولم يجد الدمشقيون في الماضي ضرورة لرفع بناء دورهم لأكثر من طابقين ، أولاً لعدم حاجتهم لهذا الإرتفاع بسبب قدرتهم على التوسع الأفقي بالبناء دون حدود . وثانياً لأن مناسيب شبكة المياه الفريدة من نوعها في العالم التي كانت تغذي أحياء المدينة كافة ودورها بالمياه الجارية بإخراجه من فروع نهر بردى ، لم تكن تسمح برفع المياه في

شلال مائي في دمر

بيوت دمشق لأعلى من منسوب مرافق طابقها الأرضي فحسب .

ومن المعروف للجميع أن كافة هذه العوامل المادية التي كانت تفرض تأثيرها على تصميم البيت الدمشقي في العصور السابقة قد تعرضت لتغيرات جذرية وتبدلات أساسية في عصرنا الحاضر اليوم . فقد ارتفعت أجور العمل والخبرة وباتت المهارة الفنية ودرجة الإتقان بالعمل أقل توفراً نسبياً اليوم منه في الماضي . وتقدمت العلوم الهندسية وأساليب البناء وتنوع إنتاج المواد وأصبح الإسمنت والخرسانة المسلحة عناصر أساسية في بناء المنشآت . وبات تحت تصرف الجميع من مهندسين وبنائين فيصنع من المواد المستجدة والمبتكرات الفنية الحديثة ، وقفزت قيمة الأرض إلى حدود مرتفعة . وتأزمت ضائقة السكن في المدينة تأزماً حاداً . كما أتاح تحقيق مشروع مياه الفيجة في الربع الثاني من هذا القرن . فكان رفع المياه إلى مناسيب عالية . فكان من الطبيعي أن تعمل كل هذه العوامل والمؤثرات مجتمعة في توجه عمراننا الحديث غير اتجاهه القديم . فيستثمر فيه الفضاء إلى جانب استثمار الأرض ، وتتعدد طوابق البناء . وتشيع المباني المشتركة الجامعة لأكبر عدد من وحدات السكن ويعزف عن الزخارف ، وعن الإسراف في المساحات والارتفاعات . كل ما يساعد على جني

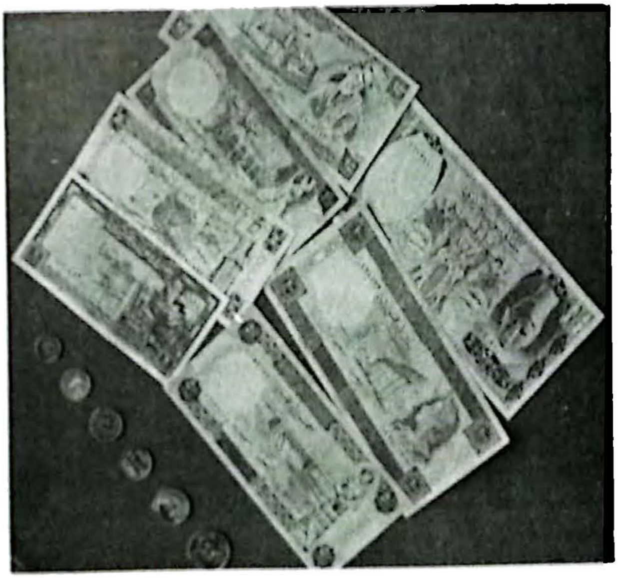

الربح الأوفر واستدرار المورد الأكبر .

لعلَّ النتيجة التي يمكن أن نستدلها من دراسة جميع هذه العوامل المتفاعلة في تطوير البيت الدمشقي في طرازه القديم المحلى بالمطرزات . إن هذا التطور ليس وليد نزعة خاصة لفرد أو مجموعة من أفراد مهما بلغ من تأثيرهم وإنما هو حصيلة حتمية لسلسلة من التفاعلات الإجتماعية والاقتصادية والفنية البعيدة المدى طغت على جميع نواحي الحياة الدمشقية فشملت عمرانها ودور سكنها واتجهت بها هذا الاتجاه والذي زاد اليوم . ولا أعتقد أن بقدرة أية سلطة أو نظام بناء جديد أن تتجاوز هذه العوامل فتعمل العودة إلى نهج طراز البناء الحديث نهجه القديم على نطاق واقعي وشامل .

ومهما هفت نفوس البعض منا لمتعة الحياة في رحاب مثل هذا البيت الدمشقي القديم . إلّا أن الواقع يفرض علينا أن نقر بأن هذا الطراز أصبح صفحة من الماضي ، وأثراً من تراث هذا البلد الخالد . وقد خسرت دمشق خلال ثورة عام ١٩٢٥ ،

منطقة الحريقة بدمشق قبل عام ١٩٢٥

والحرائق التي أضرمها الجنرال ساراي في دمشق يومذاك عدداً كبيرا من اجمل نماذج هذا البيت . كما تعرض الكثير مما بقي منها في الأحياء القديمة للاندثار التدريجي بعد أن هجرها أصحابها تحت عبء صيانتها وخدمتها والتفكك الإجتماعي الذي حلّ بأسرها .

فما أحرانا اليوم ، ونحن نمهد لتخليد تراثنا ، أن نعمل دون توان للمحافظة على القليل النادر مما بقي في دمشق من هذا التراث الرائع المجيد لأسلوب معيشة أهل دمشق طيلة قرون غابرة[1] .

☆ ☆ ☆

(١) بقلم الأستاذ المهندس صبحي كحالة ، من كتاب (دمشق دراسات تاريخية وأثرية) ، الصادر ضمن مطبوعات المديرية العامة للآثار والمتاحف عام ١٩٨٠ .

(*) فنانون تشكيليون سوريون ، ج ١ ، إعداد ومراجعة محمد حسام الدين — وحسّان أبو عياش .

حكايات ... ودلالات من الماضي

صاحب الفخامة السيد محمد تاج الدين الحسني رئيس مجلس وزراء دولة سوريا

١ ـ الكلبة المدللة :

روى لنا أحد الأصدقاء رواية عن كلبة كانت في زمن الانتداب الفرنسي ، وقد لعبت دوراً كبيراً في التعيين وعملت ما لم يستطع أن يعمله وزير أيام الاحتلال

الفرنسي لسورية ، وهذا يقودنا للقول إن الاستقلال الوطني نعمة لا يقدرها إلّا الذين ذاقوا مرّ الاستعمار وذل العبودية .

وهذه الكلبة التي اشتهرت في دمشق خاصة ، كانت كلبة المسيو فردون مستشار الأمن العام الإفرنسي ، ومن منا لا يعرف المسيو فردون ووجهه العبوس واحتقاره لكل شيء وطني ...

فمن الروايات التي تروى عن هذه الكلبة أنها عينت موظفاً في الأمن العام في حين أن رئيس مجلس وزراء سورية الشيخ تاج الدين الحسني رحمه الله ، ووزير ماليته الشعباني ما استطاعا أن يعيناه أو يبتا في أمره ...

وحكاية تأثير هذه الكلبة في توظيف هذا الموظف مشهورة وخلاصتها .

كان في دمشق ضابط متقاعد يسمى قريش بك يعرفه أكثر الدمشقيين وهو صديق حميم على المرحوم الشيخ تاج ، وقد أراد مرة أن يستفيد من مزايا هذه الصداقة فطلب إليه أن يعين ولده عدنان في وظيفة ما في الأمن العام ، أو في دائرة الشرطة ...

ولما كان الشيخ تاج يقدر هذا الرجل حق قدره ، ويعرف المكانة التي يحتلها في السابق ، فقد أخذ يهتم بأمره ويعمل على تعيين ابنه في الوظيفة الصغيرة التي طلبها .

وكان في دائرة الشرطة والأمن العام مستشار افرنسي يسمى المسيو فردون معروف بتعقيده للأمور ، لا سيما ما يتعلق منها بالدائرة التي يتولاها ، وعرف الشيخ تاج أنه إذا لم يرض المسيو فردون لا يتم تعيين ابن قريش بك ، ولهذا أخذ الهاتف وأوصى حضرة المستشار الفرنسي بابن صديقه ليعينه في إحدى الوظائف الشاغرة عنده ...

واطمأن قريش بك بأن ابنه سيعين قريباً ما دام رئيس الوزارة هو الذي أوصى بهذا التعيين واهتم بأمره ... ولكنه لم يعين ، فقد مضت أيام وأيام وقريش بك ينتظر صدور القرار بتعيين ابنه بدون جدوى .

وراجع المسيو فردون عدة مرات وهو يحمل بطاقات توصية من رئيس الوزارة ... ولكن كل هذه الجهود المضنية كانت تذهب أدراج الرياح ...

وعلم وزير المالية المرحوم الشعباني بقضية قريش بك فاستاء جداً ، لأن قريش بك كان صديقه وزميلاً له في الجيش التركي ، فراح يهتم بأمره ويسعى لتعيين ابنه أيضاً .

واطمأن قريش بك مرة ثانية لأنه يعلم أن الشعباني وزير جريء مقدام وعنيد كما يعلم درجة صداقته مع الإفرنسيين ، فلا بد إذن من أن يتعين ابنه قريباً ، لا سيما إذا أضيفت جهود وزير المالية إلى جهود رئيس الوزراة ...

وصدف أن اجتمع مرة الشعباني بقريش بك فطمنه كثيراً ... ووعده بأن لا يمر يوم أو يومان إلّا ويكون ابنه على رأس وظيفته ، وقال له : إذا لم يعينه المسيو فردون فإنه سيقصد المندوب ، وإذا لم يعينه المندوب فسيقصد المفوض السامي ، وإذا لم يلب له المفوض السامي هذا الطلب البسيط فإنه سيخابر باريس ويقيم الدنيا ويقعدها ...

فراح قريش بك فرحاً جزلاً وهو معتقد أن ابنه بعد هذه التطمينات كلها لا بدّ من أن يعين ويستلم وظيفته في القريب العاجل ...

ولكن ، بالرغم عن كل ذلك ، وبالرغم عن توصيات رئيس الوزارة ، واهتمام وزير المالية ووعوده الطويلة العريضة ، فإن قرار التعيين لم يصدر وبقي عدنان نجل قريش بك دون وظيفة ، يتعلل بها علالة الظمآن بالسراب ...

وصدف أن قريش بك اجتمع مرة بصديق وقص عليه حكايته من أولها إلى آخرها ... وكيف أنه لم يستطع تعيين ابنه شرطياً بالرغم عن وساطة رئيس الوزارة واهتمام الشعباني الوزير الجريء العنيد ، فقال له هذا الصديق :

– أنا أنصحك أن تقصد الطبيب البيطري علي سعيد ، فهذا الرجل المحظوظ قد طبب كلبة المسيو فردون فشفاها ، وهو ممتن له جداً لأن المسيو فردون يحب

كلبته إلى درجة الجنون !!! .

وبالفعل نجحت مساعي الطبيب علي سعيد في إصدار قرار التعيين ، إذ استجاب المسيو فردون لهذا الطلب « كرمال » عين كلبته[1] .

☆ ☆ ☆

٢ ـ كيف كانت ذمة الناس في الماضي ؟ :

قص عليّ صديق عن والده هذه الحكاية ، فأحببت أن أنشرها لأقابل بين الحالة التي وصلت إليها ذمة الناس في هذه الأيام والحالة التي كانت عليها في الماضي ، قال الراوي :

كان لوالدي صديق وقع تحت عجز مالي وهو يبني داراً للسكن فاضطر أن يستدين مبلغ (٢٠٠) ليرة ذهبية من صديق له .

وقد استجاب هذا الرجل إلى رغبة صديقه هذا فأسلفه المبلغ المطلوب إلى مدة سنة بدون أن يكتب عليه سنداً أو ورقة ما وراح صاحبنا يكمل بناء بيته .

ومرت سنة فلم يستطع هذا الرجل من توفير المبلغ الذي استدانه ليرده إلى صاحبه ، وحتى لا يخل بوعده معه ، فقد باع البيت الذي بناه وقدّم له المبلغ مع الشكر والتقدير ...

وبعد أن مضت على هذه العملية أربع سنوات فوجىء صاحبنا بمطالبة صديقه بالمبلغ ، وقال له : لقد صبرت عليك أربع سنوات بدون أن أطالبك بالمبلغ المستحق وقد خشيت أنك نسيته فجئت أذكرك به .

فتعجب الرجل من كلام صديقه هذا وهو الذي سدده مبلغ الدين عند استحقاقه ، حتى أنه باع منزله لكي لا يتأخر عليه ، وأخذ يؤكد له أنه دفعه له ،

---

(١) نقلاً عن مجلة المضحك المبكي ـ لم أتمكن من العثور على رقم العدد وتاريخ صدوره .

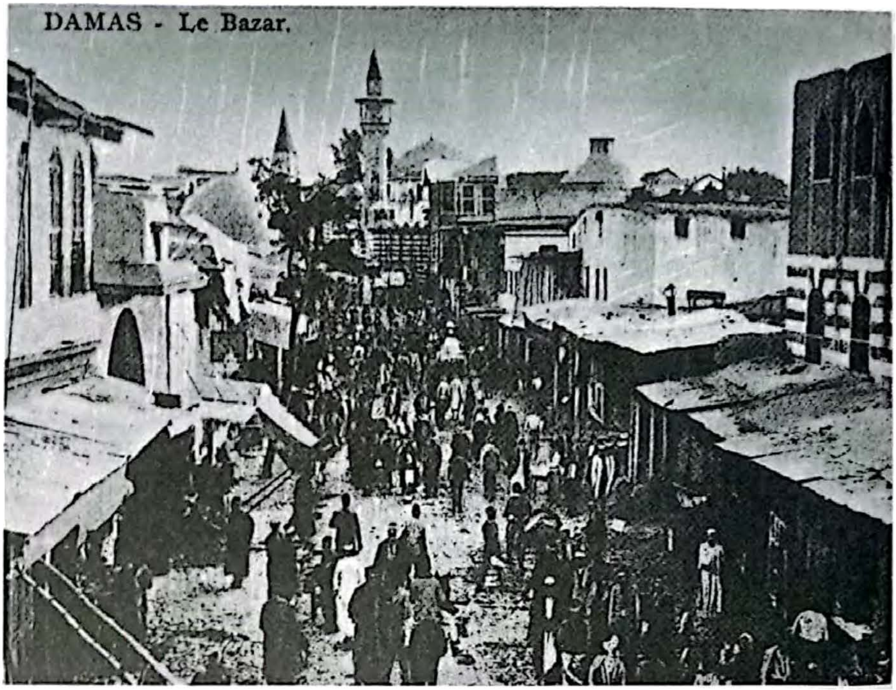

ولكن الدائن كان مصراً على أنه لم يقبض شيئاً لأن دفاتره لم تشر إلى دخول هذا المبلغ إليه .

وأخيراً احتكما إلى قاضي اتفق الاثنان عليه فحكم القاضي على المديون بأن يقسم اليمين على أنه دفع المبلغ ، فإذا فعل ذلك كان في حل منه ، إلا أن الرجل رفض أن يقسم يميناً ولو كان على حق ! وهكذا حكم عليه بدفع المبلغ فدفعه مرة ثانية وأمره لله وانتهى الإشكال ...

ومرت سنوات على هذه الحادثة حتى نسيها الدائن والمديون ، إلا أنه صدف مرة أنه بينما كان الدائن ينقل من مخزن إلى مخزن مجاور عثر ابنه في إحدى الزوايا تحت الطاولة التي كان يجلس وراءها الأب على صرة ملفوفة ففتحها فإذا فيها مائتا ليرة ذهبية ، فراح إلى والده وأطلعه على هذا الذي وجده فقال الأب في نفسه ، إن هذا المبلغ إنما هو ذلك الدين الذي دفعه صاحبنا وقد نسيناه فبقي في مكانه إلى الآن ، فلنطلب ذلك الرجل ولنرده له لأنه قد دفعه لنا كما تحقق مرتين ...

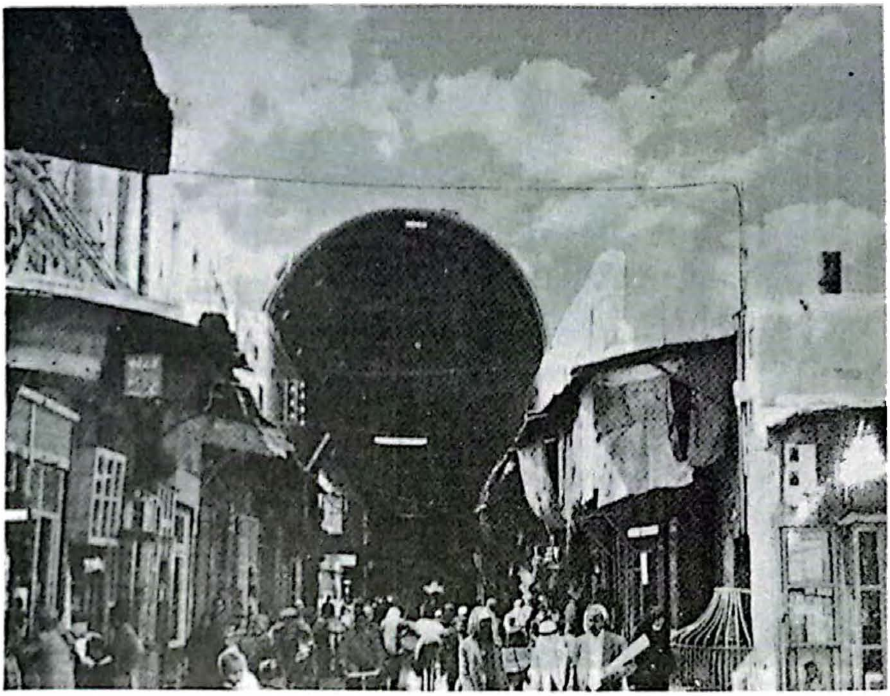

وفي اليوم الثاني ، أرسل في طلب هذا الرجل ، فقال له صديقه الدائن : لقد عثرنا ونحن ننقل من هذا المخزن على هذه الصرة ، وفيها مائتا ليرة ذهبية ، وهذا هو المبلغ الذي دفعته لنا وقد نسينا أن نقيده ونسيناه في هذه الزاوية ، وأنت قد ظلمت حينما حكم عليك بدفع المبلغ مرة ثانية ، فخذ مالك وإني لك من الشاكرين .

فاستلم صاحبنا المديون هذا المبلغ وذلك بعد أن مرّ عليه أكثر من عشر سنوات ، وبعد أن أصبح نسياً منسياً لا هذا يفكر به ولا ذاك ، فأين هذه الذمة من ذمم أصحاب المعاملات والتجار في هذه الأيام.؟!(٢)

☆ ☆ ☆

٣ ـ أبو جاسم الجليلاتي :

هو جليلاتي فعلاً ، ويفخر بأنه أقدر من صنع برذعة لحمار ، كان من أظرف

(٢) المضحك المبكي ، العدد (٨١١) ، ١٩٥١/٩/٨

الناس وأعذبهم نكتة وأحبهم في المجالس إليهم وهو يشبه بالشكل ، ظريف الشام المحبوب (حسني تلو) ... ولكن حسني بظل (يوسف الحسن) أمامه ، فأبو جاسم أحول ، أعرج وقبيح الصورة حقاً غير أنه إلى جانب هذا ، فيلسوف ، وفلسفته من النوع المقبول والساحر أحياناً ، فكل شيء له ، عنده (قصة) وكل قصة ، فيها (درس) والقصة والدرس يلفهما دوماً بقالب ظريف وفكه ، سأله أحدنا مرة : العرج ، والحول ، عندك ، له قصة ؟ فأجاب على الفور : نعم ، وبدأ في الحال بالسرد . أبو جاسم ، يزعم بأن الباري تعالى عقد معه إذ خلقه (كونتراتو) وقال له ، بإمكاني أن أجعلك مثل (عبد الرحمن باشا) ولكن رأسك لا يحمل ، وأصلح لك أن تكون كما أنت وبالعلامة حول عيني وملص رجلي ! ولكنه سبحانه عادل ، أعطاني مقابل هذا الستر والرضا ... وأنا والحمد لله اليوم ... سلطان زمان ، وبالفعل لا تسأله مرة عن حاله إلّا وأجاب : الحمد لله ، فضلها وزاد .

فجأناه مرة في البرية ممدداً على الأعشاب وأمامه كأس ... أما (المازة) فكانت ورقة عليها ملعقة ملح وأراد أحدنا مداعبته فقال : « ما شاء الله أبو جاسم ، شايف اليوم فضلها وزاد » فأجابه : أما حكينا حكاية (الكونتراتو) ، هو أعطى ونحن رضينا ، ولو كنت أعرف (بالنحوي) لحكيت لكم ألف شيء على هذا الشيء فأسعفه المتحرش :

واستف ترب الأرض كي لا يرى له
علي من الطول امرؤ متطول

فصاح : « يسلم تمك والله هذا هو الذي في خاطري » ...

أرسل امرأته مرة إلى طبيب من (الشلة) ففحصها بعناية ، ووصف لها ما يلزم بعد أن زودها بعدد غير قليل من مساطر الأدوية المجانية التي عنده ، ولما أرادت الخروج فوجىء بها تعطيه ليرة ذهبية فرفض بشدة وإذا بها تبكي وتقول : بعرضك حلف عليّ بالطلاق إذا رجعت ولم تأخذها ، وعوتب أبو جاسم في هذا فأجاب :

سيدي ، لو جاءت امرأة السلطان أول مرة وثاني مرة وكانت عملتها من صنف (الله يعطيك العافية) فثالث مرة ستعاملهـا معاملـة امـرأة (جليـلاتي) وامرأة الجليلاتي إذا أعطتك أول وثاني مرة ليرة ذهب فثالث مرة تعاملها كما تعامل امرأة السلطان و ... الستّار موجود ، فلماذا يصغر الإنسان ؟!.

وأثقل عليه أحدهم ـ وهو يحمل لقب باشا ـ وسأله (أبو جاسم ، دخلك شو قصة اللبطة على فكك وشو درسها ؟) فأجابه في الحال :

« قصتي قصة يا سيد ، كان لي صاحب عزيز مثل فضلك وله حمار فأوصاني على (طقم) له فأكملته بكل اعتناء ولما جاء للقياس حرن ... ومعلومك الحمار ، حمار ولو صار مستشار ، فكنت أدور للشمال ، يدور لليمين . أدور لليمين يدور للشمال حتى (نرفزت) ونخشته وقلت له : حمار ! وإذا به يلبطني ... ومن يومها توبة صرت إذا أردت معاملة الحمار ، لا أثيره ولا أهيجه ولا أقول له يا حمار ، وإنما أدلله وأناديه : يا باشا[٣] ... !!

☆ ☆ ☆

٤ ـ أحمد كمكوم :

كان أحمد هذا ، نجل جندي مصري من جنود إبراهيم باشا ، تخلف في دمشق واستوطنها ، ويدعى سليم كمكوم ، وكان له ثلاث أخوات ، فلما بلغ العاشرة من عمره ، غضب على أخته الكبرى ـ وعمرها ست سنوات ـ فخنقها ، ثم ذهب وخنق الثانية ، ثم وضع وسادة على رأس الثالثة وجلس عليها حتى ماتت . وبعد

---

(٣) من الأيام ، الدكتور محمد صبحي أبو غنيمة ، ص ١٥٤ ـ ١٥٦ ، منشورات دار الثقافة ـ دمشق .

ذلك ذهب إلى والده يبلغه أنه قتل أخواته الثلاث ، خوفاً من عارهن عندما يكبرن .

انهال أبوه عليه بالضرب ، وصدف أن مرَّ في تلك الساعة جد فخري البارودي ، واسمه محمد حسن البارودي ، فخلص الولد منه وأخذه إلى داره ، لأنه صغير لا يعي ما يفعل ، فرباه عنده وأصبح « قبضاياً » مرهوب الجانب .

وذات يوم تشاجر أحمد كمكوم مع شاب أخرس ، فقتله بطعنة خنجر من غير قصد ، فالتجأ إلى دار أهل فخري البارودي ، وحماه الجد مرة ثانية ، حتى هدأت الأعصاب ، واستطاع والد فخري البارودي استرضاء والدي القتيل بدفع الدية .

بعد ذلك .. عاش أحمد كمكوم في دار أهل فخري البارودي ، وأقسم أنه سيمسح أحذية العائلة البارودية حتى الموت ، وكان يأتي كل أسبوع بصندوق البويا ويمسح أحذيتنا ، ويدعو الله ألَّا يميته إلَّا على باب دارنا .

وذات يوم وكان قد تجاوز الثمانين ، شعر بقرب منيته ، فطلب إلى زوجته أن تقوده إلى دارنا ، حيث جلس أمام باب الاسطبل ، وبعد دقائق أسلم الروح هناك .

وكان كمكوم يحترف صنعة « البسطاطية » ، أي بيع الحوائج القديمة ، كأدوات النجارة والحدادة ، وما أشبه ذلك من مطارق ومناشير وأمواس . وكان يبيع حاجاته بالرخص لأن بعضها « لقطة » أو مسروق . وكان البسطاطيون من أشقى فتيان دمشق . ومنذ عشرين سنة تقريباً انتظمت هذه الحرفة وفتحوا لها الحوانيت . وهي رائجة اليوم في سوق الدرويشية .

☆ ☆ ☆

(٤) مذكرات البارودي ، ستون سنة تتكلم ، ج ١ ، ص ٧٣ .

٥ ـ التفاخر بين رجال الأحياء :

من العادات السائدة في مطلع القرن العشرين بدمشق ، قاعدة التفاخر بين الأحياء فكان لكل حيّ هيئة وجوه ، يعدون عيون الحيّ وكرامه ، فإذا قدموا إلى زيارة بعض رجال الأحياء الآخرين استقبلوا من قبل وجوهه بعز وإكرام وألفاظ خاصة تنم عن الكرم والتواضع مع العزة والإباء ، وينادي بعضهم بعضاً بالكُنيٰ (أبو فاضل ، أبو حاتم ، أبو صياح ، أبو غانم ، أبو ساطور ، أبو فهد ، أبو فارس ، أبو رياح ، أبو عجاج ، أبو حَرْب ، أبو كاعود ، أبو كاسم ، أبو سعيد ...) وأمثال ذلك من الألقاب المتناسبة مع مواهب صاحب الكنية ، فإن كان نشيطاً خفيف الحركة سمّي (أبو رياح) ، وإن كان كثير الجولات في المعارك يسمى (أبو عَجاج) ، وإن كان خفيفاً فاتكاً يسمى (أبو فهد) ، وإن كان ثقيلاً رازناً مغواراً يسمى (أبو فارس) ، وإن كان جهير الصوت مرعباً يسمّى (أبو صياح) ، وإن كان بارعاً بضرب السيف أو القامة (نوع من السكاكين) يسمى (أبو ساطور) ، وإن كان كريماً مفرطاً يسمّى (أبو حاتم) ، وإن كان محظوظاً موفقاً يسمّى (أبو سعيد) ، وإن كان من طبعه استطلاع الأخبار هنا وهناك سمَّوه (أبو كاعود)(٥) .

☆ ☆ ☆

٦ ـ الملاك الأبيض ... مرة ثانية :

حين نشرت في كتابي (طرائف وصور من تاريخ دمشق) الصادر عام ١٩٨٩ ، قصة (الملاك الأبيض) ، بالإضافة إلى صورة رمزية تمثله من وحي خيال الفنان الصديق علي عثمان ...

---

(٥) دمشق في مطلع القرن العشرين ، تأليف أحمد حلمي العلّاف ، علّق عليه وقدّم له علي جميل نعيسة ، ص ٢٣٩ ، دار دمشق .

الملاك الأبيض
وهو شاب[1]

احتج عشرات الأشخاص على نشر الصورة الخيالية ، لأنها لا تمثل شخصية (الملاك الأبيض) بأي حال من الأحوال .

ورحت أفتش هنا وهناك عن الصورة الحقيقية (للملاك الأبيض) ... وبعد جهود مضنية أخفقت في مهمتي ... فأهملت الموضوع مؤقتاً وفي النفس غصة .. لأنني أطمح إلى الإبهار فيما أكتب ...

وبمصادفة سعيدة . التقيت بصديقي الأستاذ (أبو شاكر) ـ حفظه الله من كل أذى ومكروه ـ وكان قد قرأ كتابي الأول عن دمشق .. فأعلمني أنه كان صديقاً شخصياً (للملاك الأبيض) وأعطاني مشكوراً صورته المنشورة في هذه الصفحة .

وفي هذا الصدد ... فإن (الملاك الأبيض) كان يتوهم أن الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب قد سرق ألحانه ونسبها لنفسه .. أما الفنان المبدع فريد الأطرش فقد سرق صوته .. لذلك فإن قطار الشهرة فاته إلى الأبد .

مكتبات دمشق
صناعة ثقافية .. ورسالة حضارية

العلامة أحمد عبيد ومؤلف الكتاب

□ المكتبة العربية :

تعتبر (المكتبة العربية) لمؤسسها المغفور له الأستاذ المحقق أحمد عبيد ، أول مكتبة نموذجية تعرفها دمشق في تاريخها الحديث ، حيث فتحت أبوابها للزبن ، لأول مرة عام (١٩٠٨) ، وما تزال مستمرة في تأدية رسالتها الثقافية المضيئة ، بإشراف السيد رجاء أحمد عبيد .

وحين انتهت الحرب العالمية الأولى ، انفتحت أبواب العالم على دمشق ، لا سيما

أبواب مصر ، التي كادت أن تكون المورد الوحيد للمطبوعات العربية ... وشرع الأديب أحمد عبيد في جلب ونشر ما يراه مفيداً . فكان لا يبيع كتاباً حتى يفحصه ويقرأ مقدمته وفهرسه وبعض فصوله ، ويرجح أن لا شذوذ أو شطط بين سطوره . وربما طُلب منه الكتاب فينصح طالبه إلى ما هو خير منه .

وبذلك أصبحت المكتبة مقصد طلّاب المعرفة ، وملتقى الأدباء والشعراء والفقهاء من رجالات الشام . أو زوّار دمشق من الأدباء العرب وأهل الإستشراق ... وهكذا أصبحت المكتبة ـ آنذاك ـ أول مجمع علمي عربي (غير رسمي) في الوطن العربي بأكمله ، تعقد فيها تلقائياً ، ندوات يومية لكبار رجالات الأدب ، وصفوة العلماء والشعراء ، والصحفيين ، فترفد عطاءاتهم وترعى جهود السائرين على نهجهم بمنتهى الأمانة والإخلاص .

توقفت (المكتبة العربية) عن إصدار وطباعة الكتب منذ مدة ، واكتفت بإصدار (روزنامة) سنوية في مطلع كل عام ، لنشر عيون الحكم والمواعظ في الشعر والأدب ، والتاريخ ، والمعلومات العامة ... ومن المؤسف أن يقوم بعض ضعاف النفوس بتزوير أوراق التقويم (الروزنامة) دون وجه حق .

ولمؤسس المكتبة العلّامة أحمد عبيد (٣٥) كتاباً مطبوعاً ، و (٢١) قيد الطبع .. من هذه الكتب المطبوعة نذكر :

- سيرة عمر بن عبد العزيز ، تحقيق .
- ذكرى الشاعرين ، أحمد شوقي ، وحافظ إبراهيم .
- تهذيب تاريخ ابن عساكر ، ج ٦ وج ٧ .
- الشهاب الثاقب في ذم الخليل والصاحب ، تحقيق .

□ مكتبة النوري :

لا أذيع سراً إذا قلت إن السيد محمد حسين النوري (أبو سالم) ، يعد بحق النموذج الواقعي ، للرجل العصامي المكافح أبداً ، والذي استطاع بفضل رجاحة تفكيره ، وموضوعيته ، وحسن تدبيره ، وعفويته الذكية ، أن يؤسس مكتبة متميزة ، تعتبر بحق المكتبة المثالية الأولى في سورية وفي الدول المجاورة كما لمستُ بنفسي ...

محمد حسين النوري ومساعده المخلص عباس طهراني (أبو حسين)

رياض

عمر

محمد سالم

لم يصل السيد النوري إلى هذه المرتبة .. وإلى هذه المكانة .. بالمصادفة السعيدة وحدها ، أو نتيجة دعاء الأهل ، وتشجيع الأصدقاء الأوفياء ، بل شق طريقه إلى القمة ، بإصراره ، وسهره ، ونشاطه الدائم ، وتخطيطه الصائب الذي بدد الظروف الصعبة المحيطة به ، فاستحق الثناء ...

البداية كانت متواضعة جداً في مكتبة هامشية في منطقة المرجة ، حيث كان متعهداً يبيع الصحف الدمشقية والعربية ... ومن ثم انتقل إلى مكتبة ثانية في (السنجقدار) .. وأخيراً كانت المحطة الثالثة في مكتبته مقابل البريد المركزي ، أي أن رحلته مع الكتاب استغرقت حوالي الـ (٥٠) سنة .. وما زالت مستمرة .

وفي هذا الصدد .. فإن (مكتبة النوري) تشارك في المعارض المحلية ، وهي تمثل في دمشق كبرى دور النشر اللبنانية .. نذكر منها :

- دار الآداب .
- دار العلم للملايين .
- دار الأندلس .
- مكتبة لبنان .

وبعد هذه الرحلة الطويلة التي أمضاها السيد محمد حسين النوري ، في خدمة

الكتاب والقراء ، وجد (المؤسس) ضرورة تسليم إدارة المكتبة ودار النشر لأنجاله السادة :

- محمد سالم .
- عمر .
- المهندس رياض .

وبالفعل تقاسم الفرسان الثلاثة مسؤوليات العمل والإدارة ، بهمة عالية ، من أجل أن تكون المكتبة في خدمة المثقفين ، والباحثين ، والقراء كافة ، وفي خدمة الثقافة العربية المعاصرة .

□ دار اليقظة العربية :

كانت دار (اليقظة العربية) ، دار النشر الأولى في سورية ، التي تطبع وتنشر الكتب العربية والأجنبية على اختلاف أنواعها ، والتي عرفت منذ فجر تأسيسها

بالدأب المتواصل لنشر الكتب العربية ، وترجمة الآداب العالمية إلى لغة الضاد ، يؤازرها في هذا العمل الجليل ، نخبة من خيرة الأدباء والمفكرين من دول عربية .

في البدايات .. تأسست (دار اليقظة) تحت اسم (البابيروس) وكانت تقع عند جامع (دكنز) ، وقد اختصت بتجليد الكتب .

وفي عام ١٩٣٩ عرفت (البابيروس) بـ (دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر) ، عندما انتقلت إلى موقعها الحالي - بجوار سينما الكندي - وبإشراف الأشقاء الثلاثة - رحمهم الله - وهم :

- شفيق حمدان .
- محمد حمدان .
- فائق حمدان .

شفيق

محمد

فائق

وراحت (دار اليقظة العربية) تطبع الكتب المفيدة والجادة ، فكانت منشوراتها محط الأنظار والاهتمام ، وموضع الثقة في البلاد العربية كافة .

وبعد مرور ثلاثين عاماً على تأسيس هذه الدار المتميزة ، توقفت (دار اليقظة العربية) عن نشر الكتب ، واكتفت بتحويل الدار العريقة إلى مكتبة عامة ، يقصدها من يرغب باقتناء الكتب التراثية ، والإصدارات الحديثة .. ثم عادت أخيراً .. إلى إعادة طباعة بعض الأعمال الأدبية الهامة ، التي صدرت في الماضي ، نذكر منها :

- مرتفعات وذرنج ، تأليف إميلي برونتي .
- الساعة الخامسة والعشرون ، تأليف كونستانتان جيورجيو .

ـمن الكتب التي أصدرتها (دار اليقظة) نذكر :

- الأم ، مكسيم جوركي .
- الحرب والسلم ، تولستوي .
- بعض مؤلفات المفكر العربي زكي الأرسوزي .

يشرف على المكتبة ـ دون تفرغ ـ المحامي الأستاذ غياث محمد حمدان .

أحمد الزعبي أحد أصحاب دار الفكر

□ دار الفكر :

تأسست (دار الفكر) بدمشق عام ١٩٥٧ . وقد التزمت بأن تقدم لقرائها الفكر العلمي الجاد ، وأن تيسر لهم سبل القراءة في شتى ميادين العلم والمعرفة ، فوضعت سائر إمكاناتها تحت تصرف النخبة من الكتاب والمؤلفين ، جامعيين وغير جامعيين ، لذلك استقبلت منشوراتها بكل حفاوة وتقدير .

وتجدر الإشارة إلى أن (دار الفكر) قد استكملت عدتها الفنية ، فجلبت أحدث الآلات للصف التصويري (الألكتروني) . تشارك (دار الفكر) في المعارض العربية ، ولها وكلاء توزيع في بيروت ، والرياض ، والخرطوم .

سليمان بواب

□ دار الحكمة :

السيد سليمان بواب (أبو سليم) ، شخصية متميزة ، متعددة النشاطات والمواهب ... فهو مؤسس (دار الحكمة للطباعة والنشر والتأليف) ، التي مضى على تأسيسها

أكثر من عشرين سنة .

وصاحب مجلة (المنارة) الشهرية القادمة إلينا من (أثينا) ، والتي أصدرها السيد سليمان بواب ، من أجل تقديم الحقائق للقراء العرب ، وتوعيتهم من خلال نفس قومي نظيف .

وبالإضافة إلى ذلك فإن السيد سليمان بواب ، يهتم بطباعة ونشر الكتب التراثية ، ويحقق بعضها بنفسه ، لتصل إلى أيدي القراء في حلة نضرة قشيبة ، لا سيما وأن السيد بواب من خريجي قسم اللغة العربية ، وهو حائز على (ماجستير) في الآداب .

وبما أن البلاغة بالإيجاز ... فإننا نأمل أن تستمر (دار الحكمة) بتأدية رسالتها الثقافية ، وأن ترفد المكتبة العربية بكل ما هو مفيد .

☐ دار الكتاب العربي :

السيد وليد ناصيف ، النموذج الذكي للشاب الطموح ، الذي يناضل بشجاعة ،

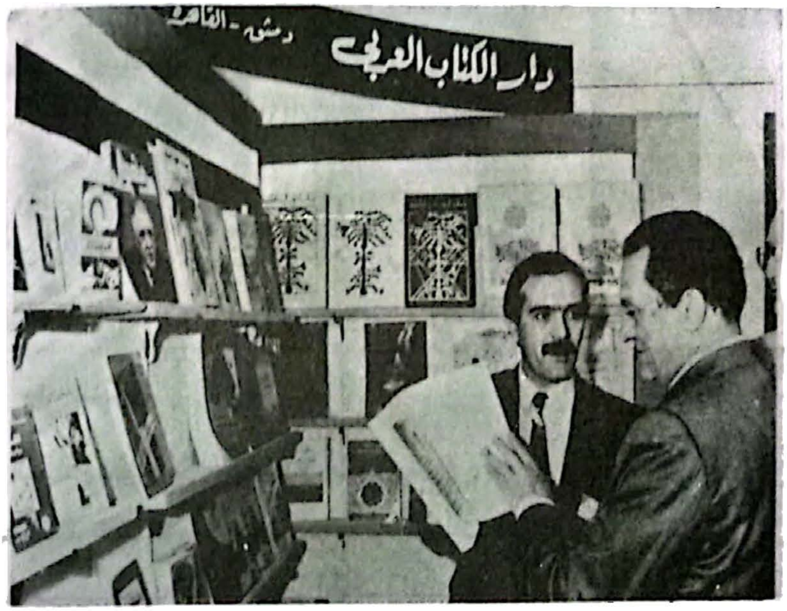

وليد ناصيف إلى يسار الصورة ويظهر في الصورة السيد الرئيس حسني مبارك ومكان التقاط الصورة في معرض القاهرة الدولي للكتاب

ويسير بسرعة (٣٦٠ كم) في الساعة ، لتأخذ (دار الكتاب العربي) المكان الطبيعي بين دور النشر العربية .

ولكي يحقق طموحه المشروع ، سافر إلى القاهرة ، وافتتح مكتباً ثانياً لصالح دار نشره في دمشق ، وراح يطبع الكتب التراثية ، والكتب الأدبية ، وكتب التسالي ، طبعات شعبية ، في مطابع دمشق وبيروت والقاهرة ، دون أن يغيب عن ذهنه ضرورة إيصال الكتاب السوري إلى القراء في جمهورية مصر العربية .

وبالفعل نجح إلى حد كبير في تحقيق مهمته النبيلة ، وأثبت حضوراً حقيقياً (لدار الكتاب العربي) في العواصم العربية ، التي عرفته طاقة مشتعلة بالحماس من خلال معارض الكتب .

□ دار سعد الدين :

للسيد محمد توحيد سعد الدين .. حكاية طويلة وشائقة مع الكتاب التراثي .. والتاريخي .. والأدبي .. لقد تعرف عليه لأول مرة أثناء مساعدته لعمه في إدارة مكتبته في القاهرة واسمها : (مكتبة المتنبي ـ حامد وسعد الدين) .

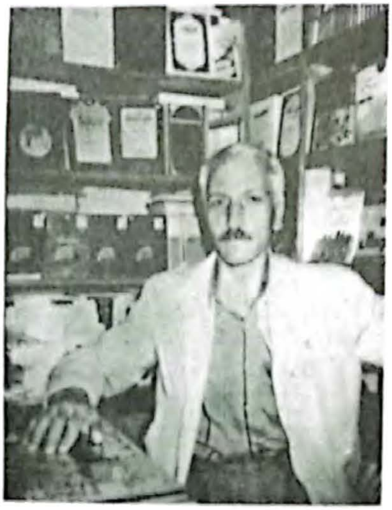

محمد توحيد سعد الدين

وخلال تواجده شبه اليومي في مكتبة (المتنبي) ، التقى هناك بكبار الأدباء والمفكرين والمحققين المصريين والعرب ... الذين كانوا من روّاد المكتبة ، بخاصة إذا عرفنا أن (مكتبة المتنبي) ، كانت وما تزال تهتم بالكتاب السوري ، من أجل إتاحة الفرصة لأبناء الشعب العربي الشقيق في مصر ، لمتابعة الإصدارات السورية الحديثة ، تحقيقاً للتواصل الثقافي بين أبناء الأمة العربية الواحدة .

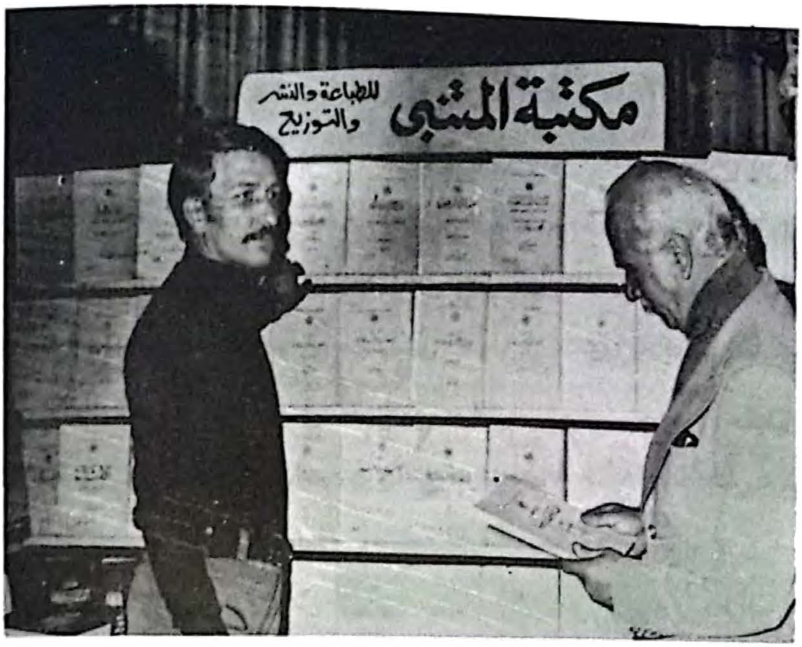

السيد سعد الدين إلى يسار الصورة مشاركاً في معرض القاهرة الدولي للكتاب

ويبدو أن صداقة وطيدة نشأت بين السيد محمد توحيد سعد الدين ، وبين الأدباء والباحثين الذين صادفهم في المكتبة .. فكانت النتيجة أنه أحب الكتاب .. وعالم المكتبات .. وتفرغ نهائياً لهذه المهنة الشريفة ، بعد أن كان يزاول مهنة تجارة الطوابع البريدية التذكارية .

وحين عاد إلى دمشق عام ١٩٧٠ ، افتتح مكتبة أنيقة في (حيّ عين الكرش - جادة كرجية حداد) . وقد احتوت هذه المكتبة نفائس الكتب التراثية ، والأدبية ، واللغوية . وبعد مدة من الزمن ... زاول السيد سعد الدين مهنة النشر ، بالإضافة إلى إدارته المباشرة للمكتبة .

بقي أن نذكر بأن السيد محمد توحيد سعد الدين ، قد شارك في العديد من المعارض العربية والمحلية .. وهو وكيل مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق إلى (مكتبة المتنبي) في القاهرة .

□ **دار دمشق :**

أديب تنبكجي

تأسست (دار دمشق للطباعة والنشر) عام ١٩٥٤ ، بمبادرة من السيد أديب تنبكجي .

يلاحظ أن هذه الدار منذ تأسيسها ، تجهد وبكافة الوسائل المتاحة ، إلى نشر وطباعة مختلف أنواع المعارف والعلوم الإنسانية مع مراعاتها - كسياسة ثابتة - الابتعاد عن طباعة الكتب الهابطة فكرياً ...

قدّمت (دار دمشق ..) للقارىء على امتداد الوطن العربي الكبير : سلسلة مصادر الاشتراكية العلمية ، وسلسلة مصادر الفكر السياسي ، ومؤلفات روجيه غارودي ، ومؤلفات الدكتور طيب تيزيني ...

من الكتب التي أصدرتها (الدار) عبر تاريخها الطويل كتاب (خنجر إسرائيل) ، الذي كان له صدى طيب عند الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، فأرسل إلى السيد أديب تنبكجي ، كتاب شكر على حسن اختياره .. ووعيه .. وإسهامه في تنبيه وتحذير الأمة العربية ، من الخطر الصهيوني الحاقد الذي يهدد وجودها القومي .

□ **المكتبة الحديثة :**

بشير جركس

السيد بشير جركس ، مؤسس (المكتبة الحديثة) ، الكائنة في الحجاز ، خلف التكية ، يعمل في شؤون الكتاب والنشر منذ حوالي الـ (٣٢) سنة ، مما أتاح له أن يكتسب خبرة واسعة وميدانية ، عن هذه المهنة العريقة ، وعن أذواق القراء وميولهم ، وسلوكهم الذهني ، فيما يتعلق بالتعامل مع الكتاب ونظرتهم إليه .

يقول السيد جركس : إن القراء في الماضي كانوا يشترون ألوان الأدب والفكر كافة ، دون تمييز أو تحيز ... أما قراء اليوم فقد اختصوا في موضوع معين أو جانب محدد من جوانب المعرفة ، فالمرء الذي يقرأ الكتب السياسية ، لا يهمه أن يقرأ أو يقتني الكتب التاريخية أو الفلسفية إلخ ...

كما أن القارىء في هذه الأيام لا يقرأ إلّا للكتّاب المشهورين (النجوم) ... بينما كان القارىء في الماضي لا يهتم كثيراً بما تجود به قريحة مشاهير الأدباء ... المهم أن تحقق له الكتاب المتعة والفائدة والمعلومة الجديدة ..

ويضيف السيد بشير جركس : إن أصحاب المكتبات في الماضي ، كانوا يعمدون إلى تأجير الكتب للأخوة القراء لقاء أجر زهيد ، وذلك لعدم توفر السيولة المالية مع القراء ...

ويرى السيد جركس .. أن على صاحب المكتبة لينجح في عمله ، أن يتحلى بصبر أيوب ، وأن يحيا عدد سنوات عمر نوح عليه السلام ، وأن يملك مال قارون !

ويؤكد صاحب (المكتبة الحديثة) .. أن غلاء الكتب من أهم العوامل التي أدت إلى تناقص عدد القراء في السنوات الأخيرة .. وعلى الرغم من ذلك فإنه يزاول هذه المهنة المحببة إلى قلبه كاستمرار لخطه القديم .. ولأن الكتاب هو صديق الجميع ...

ويأمل السيد بشير جركس .. بأن تصبح المكتبات في دمشق متخصصة في لون معين ، بحيث لا يتعب المرء أو يضيع وقته في السؤال .. لكننا للأسف الشديد لم نصل إلى مرحلة التخصص .

□ دار البشائر :

تأسس (دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع) ، الكائنة في شارع ٢٩ أيار — جانب مطعم السياحة ، بمبادرة طيبة من السيد عادل عسّاف ، عضو اتحاد الناشرين السوريين في دورته الجديدة .

والسيد عادل عساف ليس من الوجوه الجديدة على مهنة الكتاب وشجونه ، وقضايا النشر ، بل له تجربة ناضجة وواعية عمرها (١٦) سنة ، رشحته لأن يأخذ مكانه الطبيعي في عالم المكتبات .. والنشر .. فاستحق تقدير ومحبة الجميع .. سواء أكانوا من الكتّاب أو من زوّار المكتبة .

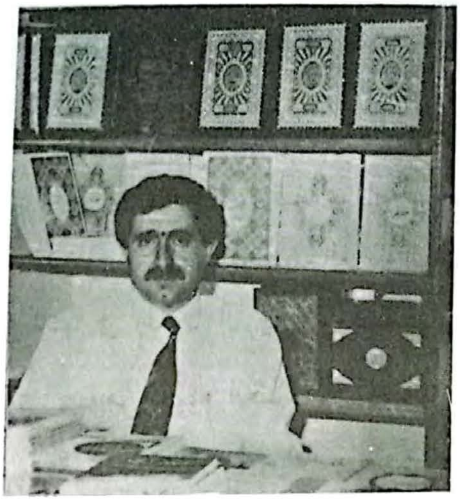

عادل عسّاف

ويرى السيد عساف أن على صاحب المكتبة أن يزود مكتبته بأنواع الكتب كافة ، دون أن ينحاز إلى لون معين ، وأن ينصح القارىء بالطبعة الجديدة الخالية من الأخطاء ، وأن لا يكون الربح المادي هاجسه الأول والأخير .

☐ دار أسامة :

محمد أسامة الكرم

الكتاب .. ليس كغيره من السلع التجارية أو الكمالية ، بل هو قيمة وطنية وحضارية وتربوية ، تدخل في بناء الشخصية العربية الواعية ، المؤمنة بقضايا أمتها في غدها القريب ومستقبلها المأمول .

ومن مهام الكتاب في حياتنا العامة ، أنه ينير العقول ، ويبدد الخرافات ، ويهذب النفوس ...

لهذه الأسباب وغيرها .. تأسست (دار أسامة للطباعة والنشر) بمبادرة من السيد محمد أسامة الكرم ، وخلال عقدين من الزمن ، أثبتت الدار حضورها ، وقدمت للقراء روائع الأدب العالمي ، بطبعات شعبية وبأسعار مدروسة لا ترهق ميزانية القارىء ...

بقي أن نذكر بأن السيد أسامة الكرم ، يمثل العديد من دور النشر اللبنانية في دمشق ، وهو عضو اتحاد الناشرين السوريين ، وقد سبق له أن شارك في العديد من المعارض المحلية والعربية .

ويرى صاحب الدار .. أن انتشار الثقافة النظيفة بين أبناء الشعب ، تؤدي إلى احترام القوانين المرعية ، والمشاعر العامة ، وترفع من سوية الذوق العام .

☐ دار التمير :

محي الدين الصالح

تأسست دار ومكتبة التمير عام ١٩٨٧ ، بمبادرة شخصية وبتعاون ثنائيٍّ من قبل السيدين محيي الدين الصالح ، وخليل الشيباني النحلاوي .

والجدير بالذكر .. أن السيد محيي الدين الصالح ، هو من خريجي كلية الفلسفة بجامعة دمشق ، وقد أمضى مدة طويلة في وزارة الإعلام السورية ، كقارىء للكتب في مديرية الرقابة ، وحين استقال من عمله .. وجد أن عمله الجديد في مهنة النشر يسعده ويرضي ضميره .

تهتم دار التمير بنشر الكتب العلمية والفكرية بصورة عامة ، والدار المذكورة تمثل كبرى دور النشر اللبنانية نذكر منها :

دار الكتاب العربي ، ودار الكتب العلمية ، ودار الرائد العربي .

☐ دار كرم :

عبد العزيز الكرم

تأسست (دار كرم للطباعة والتوزيع) في دمشق عام ١٩٤٧ ، بمبادرة من السيد عبد العزيز الكرم ، الذي كان هاجسه الكبير وأمله الوحيد ، منذ فجر شبابه ، أن يؤسس مؤسسة نموذجية للطباعة والنشر ، تقدم للقراء الكتب الشعبية بأسعار زهيدة ، فكان له ما أراد .

يلاحظ أن (دار كرم) تهتم بإصدار الروايات الشعبية الرائجة بين أبناء الشعب ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

- سيرة الملك سيف بن ذي يزن .

- قصة الزير سالم .
- دليلة والزيبق .
- حمزة البهلوان .
- سيرة بني هلال .

وتجدر الإشارة إلى أن منشورات (دار كرم) تجدها في العديد من العواصم العربية ، وبعض الدول الأوروبية والأفريقية ، التي يتواجد فيها جاليات عربية .

☐ مكتبة العائلة :

تقول الأديبة السورية السيدة مهاة فرح الخوري :

مهاة فرح الخوري

بعد أعوام من التفكير ، وبعد سنة ونيف من الاستعدادات والتحضير ، وفي سنة ١٩٨١ شرعت بالتعاون مع المشرفين على إدارة مكتبات العائلة في الوطن العربي ، بوضع حجر الزاوية لمكتبة متميزة في دمشق تحمل الاسم ذاته .

وكان الافتتاح الرسمي في الشهر الحادي عشر من عام ١٩٨١ .

وتضيف الأديبة الكبيرة السيدة مهاة :

وبعد سنوات من المتابعة والجهود الصادقة ، تحولت المكتبة إلى مركز ثقافي وطني ، يستقطب الناس بجميع فئاتهم ...

وتعرض في المكتبة الكتب بكافة أنواعها ، وباللغات : العربية ، والفرنسية ، والإنكليزية ، بالإضافة إلى لوحات فنية جدارية لفنانين سوريين وغيرهم .

☆ ☆ ☆

نصوح الدوجي
رائد الاثارة البوليسية في الصحافة الدمشقية

نصوح الدوجي

نصوح الدوجي (١٩١٦ – ١٩٧٤ م)... اسم قد لا يعرفه أبناء الجيل الحالي ، لكنه أثار دوياً شديداً في عصره ... فقد كان رائد الإثارة البوليسية في العناوين الصحفية التي تصدرت صحيفته (دمشق المساء) ، حيث تخصصت صحيفته الشعبية في نشر أخبار الجرائم داخل سورية ، وفي الوطن العربي ، وفي العالم بصورة عامة ...

ومن الطريف أن الأستاذ نصوح الدوجي ، قد شن في الخمسينات عبر صفحات جريدته ، حملة صحفية ساخنة وشديدة اللهجة ، أثارت عواطف ومشاعر الرأي العام ، ضد أحد المجرمين الكبار ...

وكان من نتائج هذه الحملة الصحفية التي شنتها صحيفة (دمشق المساء) ، أن تنشط القضاة بإنهاء محاكمة المجرم المتورط ، بإزهاق أرواح العديد من المواطنين ، بصورة عادلة ونزيهة ، بعد أن اختصروا بعض الإجراءات القانونية الشكلية .. استجابة لمشاعر رجل الشارع .

وحين اقتيد المجرم إلى المشنقة لينال العقاب العادل ، كان طلبه الأخير أن يشاهد الأستاذ الدوجي !! وحين شاهده قال له : لولا مقالاتك النارية لما أُعدمت بمثل هذه السرعة ... وربما كانت عقوبتي السجن المؤبد ... هل استرحت الآن ؟! .

وفيما يلي طائفة من العناوين « مانشيتات » التي تصدرت صحيفة (دمشق المساء) نثبتها للطرافة :

- ميت منذ ثلاثة أشهر يعود إلى الحياة .
- محاكمة قاتل أخته بالقصر العدلي .
- رجل طاعن في السن يفترس طفلة في السادسة .
- مقتل امرأة في المهاجرين .
- انتحار ابنة يوسف وهبي .
- جريمتان في سبيل سميرة توفيق ونزهة يونس .
- القبض على المطرب كارم محمود .
- الإعتداء على فنانة بالكرباج .
- تفاصيل إعدام الحبّال قاتل بائع الحليب .
- جريمة وحشية في القاهرة . الجناة قتلوا الأم وابنتها وحفيدها ثم سرقوا ما طاب لهم !! .

وفي هذا الصدد ... هناك وجهتا نظرفي المعالجة الصحفية لشؤون الجريمة .

الأولى : ترى أن التوسع في نشر أخبار الجريمة يساعد على انتشارها ويشجع على ارتكابها ، بخاصة وأنه غالباً ما تمر مدة زمنية بين وقوع الجريمة وبين صدور الحكم فيها ، بحيث لا يقرن نشر الجريمة بالعقاب الذي يناله المجرم عنها ، وبالتالي فالقارىء يقرأ أخبار الجرائم دون أن تضمن معرفته للعقاب الذي ناله المجرم ، لذلك يطالب أصحاب هذا الرأي الصحف بأن تقلل ما أمكن من المساحة التي تعطيها لأخبار الجريمة .

الثانية : ترى أن نشر أخبار الجريمة يمنع من تكرارها لما يحققه النشر من التوعية بأساليب المجرمين وكيفية مواجهة الجريمة ، وكذلك فإن نشر العقاب الذي يناله المجرم يردع الآخرين من التفكير في الجريمة .

ويرى أصحاب هذا الإتجاه أن الجريمة جزء من الواقع الإجتماعي ، وتجاهل هذا الواقع يحرم الصحافة من أداء جزء من واجبها كمرآة للحياة الإجتماعية[1] .

ويلاحظ أن الأستاذ الدوجي كان من أنصار المدرسة الثانية ، بل إنه كان يطلب من الصحفيين أن يساعدوا العدالة في إلقاء القبض على المجرمين أينما وجدوا ، وحلّ خفايا جرائم القتل الغامضة ... خدمة للعدالة ... وللمجتمع .

بقي أن نذكر بأن نصوح الدوجي ، هو ابن السيد عبد القادر الدوجي ، تلقى تعليمه في (الكلية العلمية الوطنية) بدمشق ، ونال شهادة « البكالوريا » .. بعد ذلك اشتغل منشئاً في مديرية المطبوعات ، ثم عين مفتشاً في مديرية الميرة العامة ، وهو صاحب امتياز مجلة (الراديو) التي أصبحت عام ١٩٥١ جريدة (دمشق المساء) .

وعلى إثر اندماج الصحف عام ١٩٥٨ ، اندمجت (دمشق المساء) مع جريدة (الفيحاء الجديدة) ، وصدرتا تحت اسم (الفيحاء) ، ثم عادت إلى الظهور باسم (دمشق المساء) بعد إلغاء الدمج وعودة الصحف إلى ما كانت عليه . واحتجبت عن الصدور عام ١٩٦٣ .

انتقل إلى جوار ربه في اليوم الأول ، من الشهر الأول عام ١٩٧٤ ، تاركاً مجموعات كاملة من صحيفة (دمشق المساء) ، التي أصبحت وثائق اجتماعية ناطقة وحية ، ترصد لنا طبيعة الجرائم ... وأنواعها ... وظروف ارتكابها .. والعقوبات المتخذة حيالها ... خلال حقبة ماضية من تاريخ سورية[2] .

☆ ☆ ☆

---

(١) الصحافة المتخصصة ، د . فاروق أبو زيد ، ص ١٣١ — ١٣٢ ، عالم الكتب — القاهرة .

(٢) الثورة السورية ، العدد (٨٤٤٧) ، ١٩٩١/١/١٣ ، بقلم هاني الخير .

أبو جعفر ... يمضي (٤٧) سنة في مهنة إزهاق الأرواح

« لا تسألوا الناس ... اسألوا الظروف »

هذه المقولة الشهيرة ... التي أطلقها الروائي الراحل إحسان عبد القدوس ، على لسان أحد أبطال رواياته العاطفية ، التي كانت رائجة بين الشبان والفتيات ، وقوافل المراهقين والمراهقات ، في مرحلة الخمسينات وبداية الستينات . تنطبق هذه المقولة - كما ذكرت - على صاحبنا الملقب « بأبي جعفر » ، الذي قابلته أول مرة في السبعينات (كما أتذكر) وحين مددت يدي لمصافحة « أبو جعفر » ، راح ينظر إلى رقبتي بنظرات مريبة تثير الفزع الحقيقي والرعب في قلوب أشد الرجال شجاعة ، بخاصة وأنني أعرف أن « أبا جعفر » ، قد أزهق أرواح (١٥٢) مواطناً بالتمام والكمال وعلى مدار (٤٨) سنة ، ومن بينهم شهداء السادس من أيار الأبرار ، بالإضافة إلى المجرمين الذين صدرت بحقهم عقوبة الشنق حتى الموت ، من قبل المحاكم السورية واللبنانية .

هذا العدد الكبير من الرجال الذين شنقهم « أبو جعفر » ، أتاح له أن ينفذ

عملية الشنق بطريقة علمية ، لا تسبب الألم الشديد للمحكوم عليه بالإعدام ، حيث يلجأ إلى قذف المحكوم قذفاً مفاجئاً (بصورة مباغتة) تكفي لكسر فقرات رقبته أو عنقه ، ولا حاجة للتذكير بأن الشنق البطيء ، وبيد غير خبيرة وماهرة ، يتحول إلى عملية خنق بطيء ومؤلم . وبكلمات قليلة ... فإن « أبا جعفر » من أنصار تحقيق الموت النظيف البعيد عن الإيذاء العنيف ، حيث يتسم عمله بالإنسانية والرحمة أثناء ساعة التنفيذ تحقيقاً لقول الرسول العربي ﷺ :

« إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » . وهذا الحديث الشريف لمعلم البشرية ، يشير إلى ضرورة أن لا يعذب الجاني ، وأن تزهق روحه بأيسر ما يمكن[1] .

ويظهر حنان « أبو جعفر » الأخوي وروحه الرياضية ، بتدليكه لحبله الغليظ الذي يستعمله عادة للشنق بمادة الشمع ، فيصبح الحبل بنعومة خيوط الحرير الهندي ، ولا يسبب في هذه الحالة تشويه عنق المشنوق أو ذبح رقبته .

إن هذا الرجل الرهيب صاحب النظرات الحادة .. والشارب الكبير الذي يخفي فمه ، يعرفه جيداً أهالي دمشق القدامى والمخضرمين ... بدليل أنه حين يذكر اسمه أمامهم ، فإن القلق يرتسم على الوجوه الشاحبة ، والاضطراب يطل من العيون الحالمة .. وكيف لا .. وهو رسول الملك (عزرائيل) عليه السلام – إذا صح التعبير – في سورية ، والمعتمد الرسمي الوحيد – آنذاك – لدى القضاء السوري ، لتخليص العباد ... وتنظيف البلاد ... من شرور المجرمين ... وقطّاع الطرق ... الذين يعبثون بحياة المواطنين الأبرياء ، وينشرون الذعر والموت والسلب أينما يظهروا .

وللإنصاف نذكر ... بأن « أبا جعفر » ، كان إنساناً رقيقاً مهذباً ، لا يجرؤ

(١) أشهر حوادث الإعدام على مر التاريخ ، أسامة توفيق عبد الهادي ، ص ٩٢ ، مكتبة مدبولي – القاهرة .

على إيذاء قطة ... غير أن الجوع الكافر .. وضيق ذات اليد في بداياته حياته ، قد دفعاه إلى اختيار هذه المهنة الفظيعة . أي أن ظروفه المعاشية هي التي دفعته باتجاه إزهاق الأرواح ، دون أن ينظر للمحكوم عليه ، نظرة كراهية أو شفقة ... إنه ينفذ عملية الإعدام بدم بارد .. وبأعصاب باردة .. وبعقل بارد .. بخاصة وأنه لا يعرف من المهن سوى مهنة الشنق .

☐ كيف تعلمت الشنق :

يقول « أبو جعفر » :

- بدأت مهنة الشنق عام ١٩٠٨ ، وكنت يومئذ في بيروت دون عمل أو مأوى أو مورد رزق أسد به جوعي المزمن . وقد أراد الأتراك الذين كانوا يحكمون الوطن العربي ، أن يشنقوا واحداً من المذنبين ، فلم يجدوا شخصاً يصلح لهذه المهمة الصعبة ...

وعندها تشجعت .. وتوكلت على الباري .. وجربت حالي .. فنجحت نجاحاً باهراً .. ورفضت يومئذ أن أقبض من الوالي العثماني أية مكافأة ، لأن الحكاية برمتها كانت تجربة شخصية جديدة ... ونزوة عابرة .

وعلى أثر هذا النجاح الساحق والتفوق المتميز .. دعتني الإدارة العثمانية بعد مدة قصيرة من الزمن ، لشنق أحد المجرمين ، ويدعى (متري النمس) ، وكان متهماً مع سبق الإصرار والتعمد ، بجريمة ضد أحد المواطنين الأبرياء ، وقد نفذت فيه حكم الإعدام في ساحة البرج في بيروت .. وكما تعلم فإن القصاص شريعة الأديان السماوية كلها ، وقد شرع القصاص كحياة للعالمين : « ولكم في القصاص حياةٌ يا أولي الألباب لعلكم تتقون » .

وهكذا أثبت للإدارة العثمانية .. وللجميع بأنني سيد من يزهق الأرواح .. ويشنق المجرمين .

□ ذكرى حزينة :

ويضيف « أبو جعفر » قائلاً :

– ما زلت نادماً على تنفيذ الإعدام بشهداء البلاد الأبرار ، شهداء السادس من أيار عام ١٩١٦ ، حيث أمر جمال باشا السفاح ، بشنق هؤلاء الأبطال الميامين ، فاضطررت – للأسف الشديد – إلى تنفيذ هذه المذبحة المروعة ، ولو لم أفعل ذلك لأمر جمال باشا بشنقي ...

ويمتص « أبو جعفر » دخان « سيكارته » التي حملت اسم (طائلي سرت غليظة) ويقول : على كل حال إنهم الآن أحياء عند ربهم في جنان النعيم . لقد كنت مغلوباً على أمري .. ونفذت الشنق كعبد مأمور .. لا حول له ولا قوة .. كنت كريشة في مهب الريح إذا تحرك تحركت .. وإذا سكن سكنت .. دعنا من هذه السيرة المؤلمة .

□ إضافة أولى :

في ساعة المرجة بدمشق ، نصبت المشانق لكوكبة من الأبطال العظماء هم :

– شفيق المؤيد .
– عبد الوهاب الإنكليزي .
– شكري العسلي .
– عبد الحميد الزهراوي .
– عمر الجزائري .
– رفيق سلوم .

تقدموا يومها بكل شجاعة ورباطة جأش إلى أعواد المشانق : أرجوحات الأبطال والشرفاء ، وهم يرددون :

نحن أبنـــــــاء الأُلى شادوا مجداً وعـــــــلا

نسل قحطـــــــان الأبي جـــــد كل العـــــرب

وتردد النشيد الرائع في جنبات الساحة .. وشخصت الأبصار الخاشعة إليهم .. فقد قدموا أرواحهم الطاهرة في سبيل تحرير الأمة العربية لتأخذ مكانها الطبيعي تحت الشمس ...

والتهم التي وجهت إلى هؤلاء الشهداء الأبرار ، هي العمل على تحرير الوطن العربي من نير الاستعمار العثماني الأسود[٣] .

□ أبو جعفر وقصته مع الحكومات القديمة :

و « أبو جعفر » لا يخفي مشاعر حقده ونقمته على الحكومة ، ولا نقصد الحكومة الحالية ، بل جميع الحكومات التي ظهرت أيام الانتداب الفرنسي ، بالإضافة إلى الحكومات التي تعاقبت على البلاد منذ فجر الاستقلال ، في السابع عشر من نيسان عام ١٩٤٦ ، وحتى عام ١٩٥٥ ، حيث أخذت هذه الحكومات على عاتقها قطع رزق « أبو جعفر » ، فبدلت أحكام الإعدام بالسجن المؤبد في بعض الأحيان ، أو باللجوء إلى رصاص البنادق الآلية .

ولم ينته الأمر عند هذا الحدّ ، فقد قام رئيس القسم العدلي في حلب ، بنسج مؤامرة ضد بطل حكايتنا ، وذلك عندما طلب من أحد الأشخاص أن يكون منافساً « لأبي جعفر » ، فراح يمرنه على مهنة الشنق ، بهدف حرمان « أبو جعفر » من قبض أجور السفر إلى حلب والمزايا المالية الأخرى ... لكن الشخص (البديل) أخفق في مهمته الصعبة ، وشهد الجميع « لأبي جعفر » بأنه ينفذ عملية الشنق بلمح البصر ، ودون إضاعة الوقت ! .

○ كم تتقاضى على عملية الشنق ؟

– ثلاثون ليرة سورية تدفع عداً ونقداً .. ودون مماطلة أو تسويف .. مع الشكر

(٣) الجندي ، العدد (٥٥٢) ، ١٩٦٢/٥/١ .

والامتنان .. علماً أن كل عشر ليرات سورية كانت تشتري ليرة ذهبية من الطراز الإنكليزي .

○ هل قبلت إكرامية أو هدية مالية من أحد ؟

ـ نعم . فقد أعطتني أم أحد المحكومين بالإعدام إكرامية قدرها مائة ليرة سورية ، لقاء تزويده بحبة منوم قبل إعدامه بدقائق ، تساعده في إبعاد الخوف عنه .. وقد فعلتها .

○ ما هي أطرف حادثة مرت معك في مهنة الشنق ؟

ـ أطرف حادث أذكره في مهنة الشنق ، حدث معي في عام ١٩٥٣ ، يوم وقفت لأنفذ حكم الإعدام بقاتل المرحوم (الصوان) ، المعروف باسم (الإنكليزي) ، فقد وقف بشجاعة وأطلق موالاً شعبياً على دين الكيف ، وسمح له يومئذ رئيس القسم العدلي أن يكمل مواله الحزين حتى النهاية ، ومطلع هذا الموال :

مركب سعودي رسا والبحر مال عليّ
ما وجدت وليف يردّ عليّ

وقد أصغى إليه جميع الحضور .. واستيقظ كثير من النائمين في الفنادق المطلة على ساحة المرجة .. ولما انتهى الموال تقدم من المشنقة بشجاعة .. فشنقته أيضاً بشجاعة[٤] .

وهناك حكاية طريفة أخرى .. في العشرينات من هذا القرن .. أُلقي القبض على أحد المجرمين ، وسيق إلى محكمة الجنايات ، وكان رئيسها وقتئذٍ خليل رفعت بك ، فحكمت عليه المحكمة بالإعدام شنقاً حتى الموت ، ووقف خليل بك وأبلغه الحكم .

وبعد أن انتهت جميع المعاملات على هذا الحكم القضائي ، واكتسب الدرجة

(٤) الدنيا ، العدد (٣٤٥) ١٩٥٤/١/١٥ .

القطعية ، كان خليل بك قد انتقل من رئاسة محكمة الجنايات إلى مديرية الشرطة ...

ولما جاء دور تنفيذ الحكم بالمجرم ، سيق إلى المشنقة في ساحة المرجة ، والمعروف أن مدير الشرطة هو الذي يقوم بمراقبة عملية الإعدام .

وصعد المجرم على منصة الإعدام ، وبينما كنتُ أضع الحبل على عنقه ، التفت المجرم يميناً ، فوجد خليل بك أمامه ، فنظر إليه بغضب وقال له : عالمشنقة لاحقني كان .. وضحك الحضور على الرغم من حساسية الموقف(٥) .

□ إضافة ثانية :

ومن الطريف أن كلمة (عشماوي) ، ليست إلّا اسماً لأحد مشاهير جلادي مصلحة السجون القدامى في مصر ، وقد جرت العادة ــ وحتى هذا اليوم ــ على إطلاق هذا الإسم على كل من تلاه من الجلادين ، ويحصل منفذ العقوبة على مكافأة مالية علاوة على راتبه نظير كل حالة إعدام ، وفي الغالب تتوارث الأسرة الواحدة هذه المهنة .

ففي فرنسا على سبيل المثال ، تناقل تنفيذ العقوبة قبل اختراع جلوتين للمقصلة أفراد أسرة واحدة تدعى (سانسون) ، ويمتد تاريخها على وجه التحديد إلى عام ١٦٦٨ ، وقد قام سانسون الأخير بكتابة مذكراته عن هذه المهنة عام ١٩٦٢ في باريس ولاقت نجاحاً كبيراً(٦) .

□ أمنية طيبة :

وفي هذا الصدد . لو تمكن « أبو جعفر » من كتابة صفحات من ذكرياته وانطباعاته عن الأشخاص الذين شنقهم ، وردود أفعالهم قبل الإعدام بدقائق ، طبعاً بمساعدة أحد الأدباء ، لكان حقق ثروة مالية كبيرة ، تعادل أضعاف ما حصل عليه

(٥) طرائف وصور من تاريخ دمشق ، هاني الخيّر ، ص ٨٣ ، مؤسسة النوري ــ دمشق .
(٦) أشهر حوادث الإعدام ، ص ٩٨ .

خلال حياته ، ولكان أيضاً أغنى المكتبة العربية بكتاب واقعي تفوح من صفحاته رائحة الموت ... وتطل بين سطوره المضيئة ، الموعظة الحسنة ، والحكمة ، والعبرة لمن يعتبر ، والسلامة لنا ولكم .

كوكبة من شهداء السادس من أيار

شفيق المؤيد

الأمير عمر الجزائري

عبد الوهاب الإنكليزي

عبد الحميد الزهراوي

شكري العسلي

رفيق سلوم

صور ضاحكة من الحياة السياسية والاجتماعية

١٩٢٠ – ١٩٥٠ م

الاستاذ ابو درويش — شو بالظاهر ما وصلت بالحساب الجمع ؟؟؟ اجمع لي هالارقام حتى شوف ...
الدكتور عبلاني — ما هم ينجمعوا مني يا استاذ ...

١ ـ كان يستحم في حليب المرضى :

هذه حادثة وقعت في عام ١٩٥٠ ، وقد قصها علينا صديق خبير وطلب إلينا نشرها لأمرين ، الأول لغرابتها ، والثاني لإلفات نظر القائمين على إدارات المشافي

الحكومية والخاصة ، لأنهم مسؤولون عن المرضى وإعاشتهم ، وعن النظام وتأمينه ، فإذا أغمضوا عينهم قليلاً ، طار الخبز من المستشفى وطار الحليب ، وطارت الأرزاق كلها ، وأصناف الإعاشة أيضاً ، وأن هذه الحكاية التي نرويها دليل واضح على ما ينتجه إغفال المديرين وإهمالهم من نتائج .

قال الراوي :

كانت الفوضى في دور من الأدوار منتشرة في المستشفى الوطني ، وكان كل ما يدخل إليها مفقوداً ، وكل ما يخرج منها مولوداً ... وكان (الشاطر) بين الموظفين هو الذي يستطيع أن يبلع أكثر ، أو أن ينهب أكثر ، فشعرت الجامعة ـ المشرفة على المستشفى ـ بهذه الفوضى وأخذت تفتش عن مدير حازم فلم تجد أمامها إلّا الأستاذ خليل سكر فحملته إليها حملاً وأقامته على إدارة هذا المستشفى وضبطه وتنظيم أموره ...

والأستاذ سكر مشهور بشدته وإخلاصه ونزاهته ، فعندما تولى إدارة هـذا المستشفى لم يترك كبيرة أو صغيرة دون أن يتدخل فيها ، فكان يدخل المطبخ ويدقق في المشتريات ، كما كان يدخل غرفة الجراحة وغرف المرضى باحثاً منقباً مستفسراً وذلك ليضع حداً للسرقات ولا يترك مجالاً لأحد تحدثه نفسه بالسرقة .

وقد صدف ذات يوم أن زار المرضى في الصباح وهم يتناولون طعام الفطور ، فاقترب من أحدهم فوجد فنجان الحليب فيه نصفه فقط ، فأراد أن يستفسر من المريض عن جنس هذا الحليب وهل هو مخلوط أم لا ، فقال له ، كيف شفت هالحليب يا ابني ؟! .

قال له المريض : والله لساني ما ذقته يا بك ! .

قال له : ولكني أرى الفنجان ناقصاً فمن شرب منه ؟ .

قال له : ما حدا يا بك ! .

ولكن المفروض أن يكون فنجان الحليب مملوءاً إلى طفافه ، فلماذا يقدم بهذا

المقدار إلى هذا المريض ؟ .

هذا ماأشغل فكر حضرة المدير فنادى الخادم وقال له : كيف حتى هذا الفنجان ناقص ؟! .

قال له : كل الفناجين ناقصة يا بك ...

قال له : كيف حتى ناقصة ؟ فين عم يروح الحليب ؟! .

قال له : تعال غداً صباحاً ، وأنا أظهر لك فين عم يروح الحليب ...

وفي اليوم الثاني ، في الموعد المعين ، جاء الأستاذ سكر إلى المستشفى وهو يحمل كرباجاً لاعتقاده أن الخادم سيظهر له السارق ، ويمسكه مسك اليد ، وذهب رأساً إلى الخادم وقال له : قلتلي بدك تفرجيني فين عم يروح الحليب ، فتعال ورجيني تاشوف ...

فأخذه الخادم بيده وأشار إلى غرفة مغلقة وقال له : هنا عم يروح الحليب ...

وحاول الأستاذ سكر أن يفتح هذه الغرفة فلم تنفتح لأنها كانت مقفلة من الداخل ، وأخيراً دفع الباب بكل قوته ففتحه ووجد أمامه أحد الموظفين المعروفين في « بانيو » يستحم بالحليب ... فقد كان حضرة هذا الموظف يقتر على المرضى المساكين ويوفر من طعامهم ليقتصد كمية لا بأس بها من إعاشتهم من الحليب ليستحم به صباح كل يوم ...

وهنا لم يقدر الأستاذ سكر أن يملك أعصابه ، فأخذ الكرباج وراح ينزل بهذا الموظف المحترم ويضربه ضرباً مبرحاً ، حتى اضطر أن يخرج من « البانيو » بالزلط ويهرب من وجهه ، ولكن الأستاذ سكر بقي يلحقه بالكرباج من مكان إلى مكان في باحات المستشفى وهو يركض أمامه ، ربي كما خلقتني ...

وفي اليوم الثاني من هذه الحادثة صار كل مريض يتناول فنجانه مملوءاً إلى طفافه بالحليب[1] .

---

(١) المضحك المبكي ، العدد (٨٣٣) ، ١٩٥٢/١١/٢٩ .

٢ ـ رجل يجيب على عتاب وزير بقصة :

كان أحد الوزراء القدامى ، أيام الحكم الوطني ، ولا حاجة لذكر أسماء ، يعاتب صديقاً من أصدقائه ويقول له :

ـ فينك ماني عم شوفك ؟! .

فضحك الصديق وقال لمعالي الوزير ، اسمع هذه الحكاية ...

حكي أن صديقين كانا يشتغلان معاً منذ صغرهما ، وقد صدف أن دارت الأيام فرشح أحدهما ليكون رئيساً للوزراء ، فقال له رفيقه : ماذا تعمل لي إذا صرت في هذا الموقع ؟! .

قال له : كل ما تطلبه أحققه لك ! .

قال له : ولكنك إذا صرت في هذا المركز فمن الصعب أن أصل إليك ...

قال له : هذا صحيح ، ولكن أنا أدلك على طريقة يمكن أن تجعلني أتذكرك ، وهي أن تجلس كل يوم تحت تلك الشجرة الكبيرة التي هي في طريقي فعندما أمرّ بها أشاهدك هناك فأدعوك أمام الحرس إلى زيارتي فتأتي وتفتح بوجهك الأبواب ...

وصار صاحبنا .. في هذا الموقع الهام ... وذهب ذلك الصديق إلى تلك الشجرة يجلس تحتها منتظراً مرور موكب صديقه ... ومرّ الموكب في اليوم الأول والثاني ، والشهر الأول والثاني ورئيس الوزراء لم يلتفت إلى تلك الشجرة ولم ير الجالس تحتها ...

وبقي هذا الرجل أربع سنوات وهو جالس تحت تلك الشجرة ، ورئيس الوزراء يمر في كل يوم أمامه بدون أن يلتفت إلى الشجرة أو يتذكر بذلك الوعد الذي كان قد قطعه لصديقه .

وأخيراً دارت الأيام أيضاً ... واضطر رئيس الوزراء أن يترك الكرسي . ولم تمض بضعة أيام ... حتى اجتمع بصديقه وقال له :

ـ فينك كل هالمدة ما كنت عم شوفك ؟! .

فقال له الصديق : لقد كنت أجلس تحت تلك الشجرة التي أشرت لي عنها ، افما رأيتني جالساً تحتها وأنتَ تمر في كل يوم مرتين بذلك الموكب الحافل ؟..

فهز برأسه رئيس الوزراء السابق وقال له : أنا في ذلك الوقت ما كنت شايف الشجرة كلها ، فكيف بدك ياني أشوفك ؟! .

قال الراوي :

ـ لقد سمع معالي الوزير هذه الحكاية من صديقه جواباً على عتابه له ، وانصرف متذمراً وهو يغطي السماوات بالقباوات(٢) .

٣ ـ موقف أنكر ونكير من الأغنياء (قصة رمزية) :

السيد أنور القطب

كان الحديث يدور حول الغنى والأغنياء ، بحضور السيد أنور القطب ، أحد أعضاء الشركة الخماسية الشهيرة ، والتفت الحاضرون إلى السيد أنور القطب فوجدوه يبتسم ، فسألوه عن سبب هذه الابتسامة ، فقال : لقد خطرت ببالي نكتة عن الأغنياء فابتسمت لها ، ولما أصروا عليه بأن يقولها ويسمعهم إياها أخذ يقول وعمر السامعين يطول :

قال : لقد توفى مرة أحد كبار الأغنياء ، ودفن في احتفال مهيب مؤثر ، وكان موت هذا الرجل الغني موضع حديث الناس على اختلافهم . وسمع به بعض أصدقاء من الفقراء الشحاذين ، فسأل أحدهم بهذه المناسبة ، إذا مات الغني فكيف يحاسبه أنكر ونكير ، وكيف يستقبلانه ؟! .

---

(٢) المضحك المبكي ، العدد (٧٧٧) ، ١٩٥٠/١١/١١ .

وصار كل واحد منهم يخبط خبط عشواء في هذا الموضوع ، ولما ظهر جهلهم لهذا الأمر ، وليتأكدوا من حقيقة موقف أنكر ونكير من الأغنياء اتفقوا على أن يبعثوا بواحد منهم لينزل إلى قبر ذلك الميت ، ويختفي في أحد زواياه ليشاهد أنكر ونكير عندما يأتيان إلى الغني ليلاً ويسمع ما يقولانه له وكيف يحاسبانه .

وهكذا بعثوا بواحد منهم إلى القبر ، فاضطجع فيه ، وتظاهر بالموت ، فلما صار الليل جاء أنكر ونكير ، ليحاسبا الغني ، ولكنهما قبل أن يبدءا بالغني وجدا رجلاً فقيراً مضطجعاً بجواره . فقالا : لنبدأ بهذا الفقير أولاً ثم ننتهي إلى هذا الغني ، ومسكا هذا الفقير ونزلا به ضرباً وقتلاً ولكماً وهما يسألانه من أين جاء بدكة شرواله لأنها كانت من الحرير . واستمرا على ذلك طول الليل فلما طلع الصباح هرب الفقير من القبر دامي الوجه مهشماً من كثرة الضرب واللكم ، فسأله إخوانه وقالوا له :

- ماذا وجدت ؟

فتنهد وقال :

- عم تسألوني شو شفت ! قولوا الله يساعد هالغني المسكين المتوفى ! .

قالوا له :

- ليش شو صار معه ؟! .

قال :

- إذا كنت أنا تهشمت من شان يعرف أنكر ونكير منين جبت دكة لباسي لأنها من الحرير . فوالله هاداك الغني تاياكل بكرا قتل حتى يلين الصوان[٣] .

---

(٣) المضحك المبكي ، العدد (٨٣٨) ، ١٩٥٣/١/١٠ .

٤ ـ شريك الدكتور سالمون :

فخري البارودي

في حفلة عامة أقيمت بدمشق ، قام المنوم المغناطيسي الدكتور سالمون بألعاب سحرية خفيفة ، من أجل إسعاد الجمهور وتسليته ، وحدث أثناء ذلك أن سقطت بعض الأدوات ورآها الجمهور . فالتفت النائب فخري البارودي وقال للدكتور سالمون :

ـ كشفنا أسرارك يا سالمون ! .

فردَّ عليه الصحفي الكبير سعيد الجزائري قائلاً :

ـ سيدي .. ما بتفرق .. بالأصل انتو شراكة[٤] .

٥ ـ لا تضحك :

ذهب السيد فخري البارودي إلى أحد أصدقائه الأطباء فوجده يطالع إحدى الروايات .. فقال له : ليش قاعد عم تقرا يا دكتور ؟ .

فقال الطبيب : شو بدك أعمل ... قاعد عم (اقتل الوقت) .

فقال البارودي على الفور : ليش ما في زباين ؟[٥] .

---

(٤) الدنيا ، العدد (٨١) ، السنة الرابعة .

(٥) الدنيا ، العدد (٢٠٩) ، السنة السابعة .

٦ ـ الشيء بالشيء يذكر :

سار الضيف المصري مع مضيفه السوري ـ فخري بك البارودي ـ في إحدى القرى فشاهدا ثوراً كبيراً .. فقال المصري : إيه ده ، فقال البارودي : هذا ثور ... فقال المصري : عندنا ف مصر الثور قد كده بثلاث مرات ...

وبعد قليل شاهدا قطيعاً من الخراف .. فقال المصري : إيه ده .. فقال البارودي هذه خراف . فقال المصري : عندنا ف مصر الخروف قد كده بأربع مرات .

وبعد قليل مرّ بهما عدد من الجمال فقال المصري : إيه ده .. قال البارودي بدون اكتراث : لا ... ما في شي ... هدول شوية جراد .

٧ ـ البقاء في الحكم :

كان المرحوم الشيخ تاج الدين الحسني يوصي رجال السياسة ألا تبقى الوزراة في الحكم أكثر من أربعة شهور .

حسن الحكيم

وكان يقسم الشهور الأربعة على الشكل التالي :

الشهر الأول : لقبول التهاني .
الشهر الثاني : لإعطاء الوعود .
الشهر الثالث : للكذب في الوعود .
الشهر الرابع : للتقليع .

وقد طبق الشيخ تاج سياسته هذه على وزارتي صاحبي الدولة حسن الحكيم وحسني البرازي ، فقد عاشت كل من الوزارتين أربعة شهور فقط(٦) .

٨ ـ الخزينة خربانة :

كان حسن بك الحكيم مولعاً في الاستشهاد بالقصص والحكايات

(٦) الدنيا ، العدد (٨١) ، السنة الرابعة .

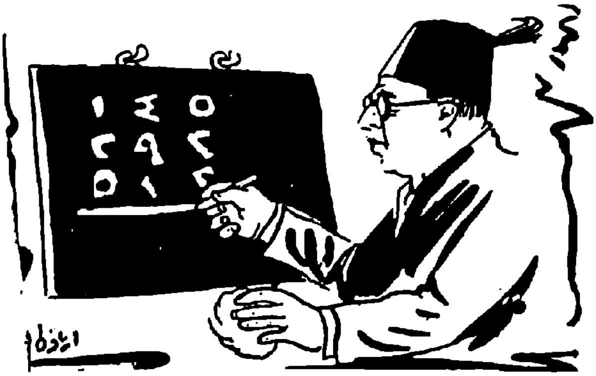

على أقواله وآرائه ...

وإلى القارىء الكريم هذه الحكاية اللطيفة التي استشهد بها عندما كان نائباً في الأربعينات من هذا القرن ، في الجواب على سؤال وجهه إليه أحد الأصحاب عن الحالة الحاضرة أيام حكم المرحوم شكري القوتلي ، فقال :

كان في دمشق ـ أيام الحكم العثماني ـ قائمقام يدعى نامق بك تركمان ، عرف بنزاهته وإخلاصه في العمل ، وكان هذا الرجل لا يحسن اللغة العربية ، ولذلك كان كلما سمع اصطلاحاً عربياً أعجبه دونه في مذكراته حتى يزيد من رأسماله في هذه اللغة الجميلة .

وفي ذات يوم سمع أحد الأصحاب يتحدث عن مالية الدولة ويقول : (الخزينة خربانة) ، فأعجبته هذه العبارة ، وأضافها إلى مجموعة العبارات والاصطلاحات العربية التي جمعها في دفتر مذكراته ...

وأراد مرة أن يحفظ هذه العبارة المكتوبة عنده ليقوي بها ملكته على التكلم باللغة العربية ، فعندما وصل إلى عبارة (الخزينة خربانة) ، فقد قرأ الباء في (خربانة) ياء ... ثم حفظها على هذا الشكل (...) .

ومضت أيام فإذا به يجتمع بالوزير ، وأخذ صاحبنا يبرهن على بلاغته في اللغة العربية ، فراح يستعمل تلك الاصطلاحات التي دونها في دفتر مذكراته والتي حفظها عن ظهر قلبه وجيء على ذكر الخزينة فقال :

ـ الحقيقة يا معالي الوزير ، (الخزينة خربانة) [illegible] بإضافة نقطة ثانية إلى الباء في (خربانة) ..

ولما تظاهر الوزير بأنه لم يفهم ماذا يقصد أن يقول نامق بك ، أخذ يرددها

له بملء فيه وهو يقول : يا معالي الوزير .. خربانة .. خربانة ...

هذه حكاية قصها دولة حسن بك الحكيم عندما كان نائباً ونشرتها مجلة (المضحك المبكي) ، فهل لا يزال يستشهد بها[٧] ...

٩ ـ سفينة نوح :

دخلت امرأة ضخمة الجسم إحدى مركبات الترام الكهربائية التي كانت تعمل بدمشق ، فقال أحد الركاب لرفقائه : ما كنت أظنّ أن مركبات الترام مصنوعة للفيلة ، فأجابته المرأة من فورها : إن الترام يا سيّد كسفينة نوح يدخل إليها كلُّ الحيوانات من الفيل إلى الحمار[٨] ...

١٠ ـ ديغول خبّر دولتك .. باريس مربط خلينا ! :

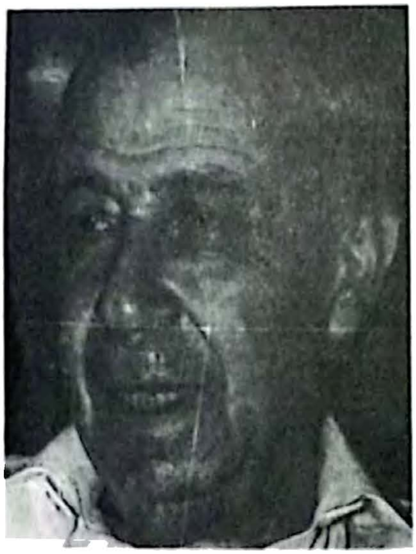

رحم الله ظافر القاسمي .. هو صاحب عبارة ديغول خبّر دولتك ... هذه العبارة التي كان يرددها المتظاهرون وراء طالب الحقوق في دمشق ظافر القاسمي أيام النضال ضد الاستعمار الفرنسي في الثلاثينات والأربعينات ...

وإذ به يسلم الروح في التاسع من شهر آذار (مارس) عام ١٩٨٤ في باريس ، إبان افتتاح معهد العالم العربي ، الذي هو

(٧) المضحك المبكي ، العدد (٨١١) ، ١٩٥١/٩/٨ .

(٨) جمال الخواطر في الأدب والنوادر .

عضو مؤسس فيه .

وظافر القاسمي ، رجل الفكر ، والمحامي اللامع ، وأستاذ الحقوق الشهير في الجامعات السورية واللبنانية ، كان من رجالات الرعيل الوطني الذي قاد معركة الإستقلال .. ومن مفارقات القدر .. أنه قاوم الفرنسيين في دمشق لكنه مات في باريس .. التي لم نستطع أن نجعلها مربط خيلنا بعد .. يا (ويلنا) على حد تعبير الشاعر أيمن أبو شعر .

١١ ـ كلُّهم مُصَلّون :

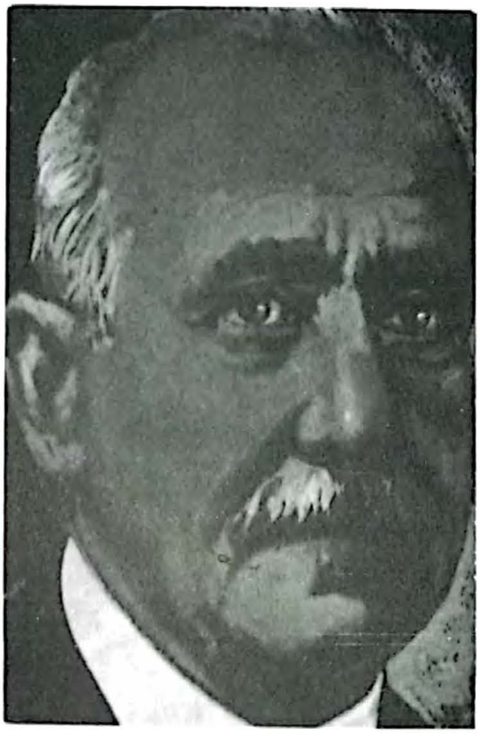

لما أقيمت الحفلة التكريمية لأمير الشعراء أحمد شوقي في المجمع العلمي العربي بدمشق ، وكان الخطباء والشعراء يتعاقبون المنبر ، سأل السيد أحمد شاكر الكرمي محمداً البزم أحد شعراء الشام ـ وكان إلى جانبه ـ : مَن المجلّي في هذه الحلْبة في رأيك أيها الأستاذ ؟ فأجابه السيد محمد البزم على الفور قائلاً : كلّهم في طاعة الله . يريد أنهم كلهم مُصَلّون[٩] ، وليس فيهم من مُجَلٍّ . فضحك من فهم النكتة من السامعين ، وأعجبوا بسرعة الجواب وحسنه[١٠] .

---

(٩) المصلّي من الخيل السابق الثاني ، ويقال للسابق الأول المجلّي وإنما سمي المصلي كذلك لأنه يكون عند صلا الأول ، وصلاه : جانبا ذنبه عن يمينه وشماله (انظر لسان العرب) .

(١٠) جمال الخواطر في الأدب والنوادر ، ج ١ ، تأليف محمد الحسن الحموي الحسيني الأزهري ، قرأه وعلّق عليه عبد العزيز رباح ، دار المأمون للتراث .

١٢ - هواية غريبة :

اعتاد أحد رؤساء الوزارات السابقين ، أيام حكم الرئيس الراحل هاشم الأتاسي أن يشترك بتشييع كل جنازة تمت إليه بصلة القرابة أو المعرفة أو رائحة الرائحة .

وصدف منذ وقت ليس بالبعيد أن كانت إحدى الجنائز تمر في سوق الحميدية . وفي الصف الأول من المشيعين حضرة صاحب الدولة ... ولم تكد تمضي ساعتان حتى مرت جنازة أخرى ، وكان في الصف الأول أيضاً صاحب الدولة المتقاعد . وهنا التفت التاجر السيد عبد الرحمن اللحام إلى زميله السيد توفيق القباني - والد الشاعر نزار قباني - مستغرباً ذلك فأجابه السيد توفيق القباني على الفور :

- سيدي دولته ... عم يوصوا عليه مع الآس[١١] .

هذه الحكاية .. تذكرنا بسلوك الأديب الفرنسي الشهير جان كوكتو ، الذي كان يشارك في تشييع جنازة من يعرف .. ومن لا يعرف حتى يراه أكبر عدد من الناس .. وبعد ذلك يصبح شهيراً .

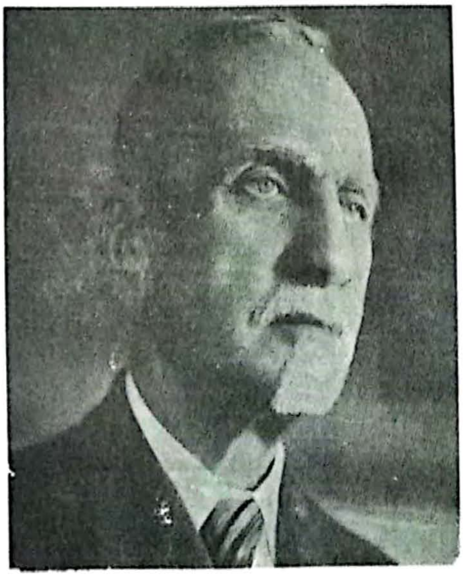

هاشم الأتاسي

(١١) الدنيا ، العدد (٨١) ، السنة الرابعة .

نهايات غير سعيدة

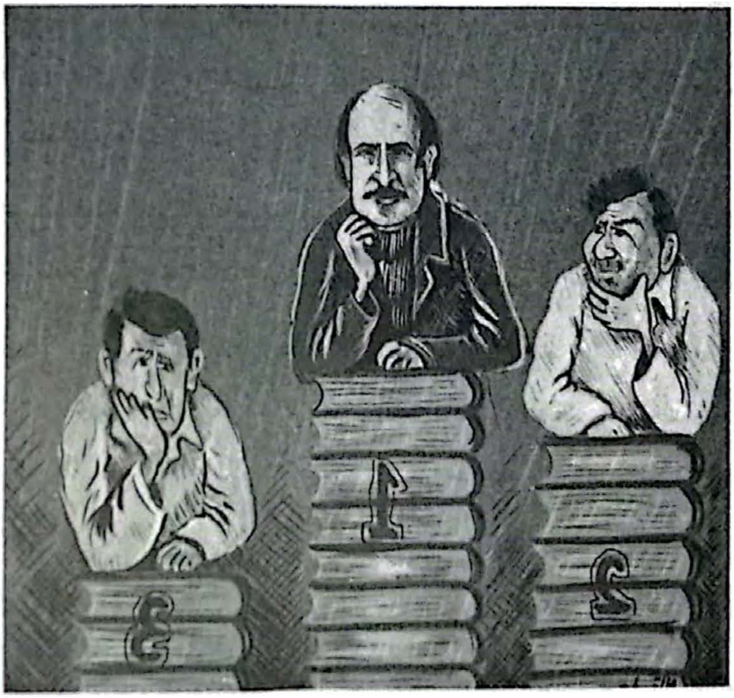

□ موت على رصيف الكلمات :

خرج من منزله الكائن في (مساكن برزة ـ مسبقة الصنع) بدمشق ، حاملاً معه همومه اليومية الصغيرة .. وأحزانه القديمة .. وقهره المزمن .. ومجموعته القصصية المخطوطة وعنوانها : « حديث سليمان عن نهر يعبر مرتين » ، ليسلمها إلى مطبعة الإنشاء بدمشق ، بعد أن حصل على موافقة الطباعة من اتحاد الكتّاب العرب .

وبينما كان يقطع الشارع ... وهو يترنم بأغنية شعبية عراقية ... صدمته حافلة عامة تابعة لمؤسسة النقل الداخلي مساء ١٣/٣/١٩٨٦ .

ترنح أولاً .. وحاول ألا يقع وينهار .. غير أن ساقيه لم تتحملا الصدمة العنيفة .. فهوى متلقياً إسفلت الشارع بركبتيه .. ثم سقط على وجهه .. وسالت الدماء من جسده النحيل .

كانت ردة فعله العفوية أن ضم مجموعته القصصية الجديدة إلى صدره الدامي .. ورأسه المهشم .. وأغمض عينيه وهو يبتسم بمرارة .. فقد تيقن أن نهايته قد دنت .. والموت يجثم فوق صدره الذي كان يموج بالحب .. والخير .. والأحلام الكبيرة .. وصرخ بصوت متقطع النبرات لا أريد أن أموت لا أريد أن أموت !! .

اجتمع العديد من المواطنين حول الضحية بهدف تشجيعه ... ريثما تحضر سيارة الإسعاف لتنقله إلى المستشفى ... لعله يسعف فتكتب له الحياة من جديد ... إلّا أنه وصل متأخراً كعادته .

بحثوا في جيوبه فلم يعثروا إلّا على علبة لفائف وطنية ، وقداحة بلاستيكية ، ومناديل ورقية ، وبطاقة ركوب في (الباص) لرحلة واحدة ، وصورة شخصية لطفله قيس ! .

فكوا أزرار قميصه .. وفتشوا الجيوب الداخلية ... وكتبوا في محضر ضبط الشرطة : لا شيء سوى ورقة نقدية من فئة الخمسين ليرة سورية ... وعلى طاولة التشريح تقدم المحقق للكشف عن هوية الضحية ... فطالعته هويته التي تحمل العبارات التالية :

- الاسم : سمير أنيس .
- مواليد : العراق ١٩٥٠ .
- الشهادة : إجازة عامة بالآداب من قسم اللغة العربية .
- الحالة الإجتماعية : أب لطفل واحد .
- المهنة : كاتب وصحافي .

وتجدر الإشارة .. إلى أن المجموعة القصصية الأولى للأديب الراحل ، كانت

قد صدرت في عام ١٩٨٢ ، بعنوان : (لا أحد يعرفه سواي) ! .

وداعاً يا صديقي سمير .. وعزاؤنا أنك مت وقد تمسكت بأوراق مخطوطك الجديد ... حتى نفسك الأخير ... عزاؤنا أنك فارقت الحياة ولا زالت كلماتك حية .

☆ ☆ ☆

□ عاشقة المتنبي :

شاهدتها تدخل إلى إحدى مكتبات دمشق .. وجدت نفسي بحركة لا شعورية أدخل خلفها بدافع الفضول الذي يرتبط بمهنة الصحافة .. أضيف إلى ذلك رغبتي بمعرفة الاهتمامات الثقافية لتلك السيدة وذوقها الأدبي في الاختيار ، لا سيما وأنها تسكن في البناية المقابلة لشرفة منزلي .

للوهلة الأولى اعتقدت بأنها ستطلب من صاحب المكتبة رواية (أنا حرة) للكاتب العاطفي إحسان عبد القدوس أو رواية (بين الأطلال اذكريني) ليوسف السباعي ! أو كتاب (أطفال تحت الطلب ومنع الحمل) للدكتور صبري القباني ... غير أنها طلبت (ديوان المتنبي) الجد الأكبر للشعراء العرب ! وقبل أن تخرج قلت لها :

– حسن اختيارك يدل على مستواك الأدبي الرفيع .

قالت :

– هذا ليس من شأنك ! .

قلت :

– الآن ينطبق عليَّ قول المتنبي :

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ولكن من يبصر جفونك يعشق

قالت :

ـ يبدو أنك تنظم الشعر ... والشعراء « يقولون ما لا يفعلون .. وهم في كل وادٍ يهيمون » ! وخرجت السيدة من المكتبة خجلى ...

طلب مني صديقي صاحب المكتبة أن لا أتحرش بزوار المكتبة .. حرصاً على سمعتي الشخصية ... وعدته خيراً ... وقلت له :

ـ حباً وكرامة .. وسمعاً وطاعة .. « أخ كريم وابن أخ كريم » وخرجت بدوري .

وفي كل مساء كنت أشاهدها تقرأ في ديوان المتنبي صفحات .... وبعد فترة وجيزة لم أعد أشاهدها على شرفتها ... شعرت بشيء من القلق لاختفائها المفاجيء ...

وبعد مضي عشرة أيام على غيابها ، عرفت أن شاباً قتل تلك السيدة البريئة برصاص مسدسه !! لأنه أحبها إلى درجة أنه تمنى لها الموت ... وتمنى له حبل المشنقة الذي سيلتف حول عنقه البارد ... لقد نسي الشاب أن الرجل لا يضرب المرأة لتحبه ... العلاقة بين الرجل والمرأة .. بين الزوج والزوجة اتفاقية (جنتلمان) قائمة على التراضي .

وجدت نفسي أسير وراء الجنازة المتواضعة ، حاملاً معي ديوان المتنبي لأدفنه معها ... لأنها كانت عاشقة للمتنبي .

☆ ☆ ☆

□ لص المقبرة :

حين نظر إلى عمته العجوز التي فارقت الحياة منذ نصف ساعة ، لم يشعر بأي حزن ! والسبب يعود إلى أن عمته قد أنفقت البقية الباقية من ثروتها الضخمة ، على شراء قبر يحيط به الرخام والزهور من كل جانب .. و لم تكتف بذلك بل طلبت

من أشهر خطّاط بدمشق ، واسمه الأستاذ بدوي ، أن يكتب اسمها الثلاثي بخط كوفي جميل على شاهدة القبر ، وهي على ثقة في قرارة أعماقها ، بأن أحداً لن يفكر بزيارة القبر ، أو قراءة ما كتب على الرخام .

من فنون الخط العربي للخطاط المبدع
بدوي أديب الديراني

فكانت النتيجة المؤسفة .. أن حرم صاحبنا من الاستفادة من بقايا الميراث الذي سيحصل عليه ، لقاء إشرافه المباشر على شؤون عمته الصحية والمعاشية ... لهذا سارع للذهاب إلى مكتب دفن الموتى للحصول على إذن بالدفن .

لقد دعا عمته الفاضلة التي تحيا بمفردها ، بعد أن مات زوجها ، أن تسكن عنده متوهماً أنها ستوصي له بثروتها . إلّا أنه اكتشف في الأشهر الأخيرة ، أن عمته تريد أن تخلد اسمها ولو على شاهدة القبر ، بعد أن حرمت من إنجاب الأطفال ... وماتت وفي نفسها حسرة وغصة مريرة ...

همس في نفسه :

ـ لقد عاشت حياتها كما أرادت ... قبل أن تتسلل الشيخوخة إلى خلايا جسدها . حياتها كانت لها نكهة خاصة .. لم يعرفها إلّا القليل من الناس . على الرغم من أن الزمن حولها في السنوات الأخيرة إلى مجرد حطام بشري يجتر الذكريات الدائفة القديمة ... ماذا كانت ستخسر لو أنها تركت لي كمية من المال ، لا سيما فئة أم الطرابيش ، تساعدني على تحقيق بعض أحلامي .. ورغباتي الصغيرة .

توقفت السيارة أمام باب المقبرة الخلفي ، ونزل من جوفها ثلاثة رجال يحملون

النعش بفتور واضح ... اعترض طريق الجنازة أحد الآباء وقد حمل بيديه طفله الصغير ، الذي فارق الحياة في ساعة مبكرة من صباح اليوم ، قبل أن يلحق النطق بكلمة : ماما ... وطلب منهم أن يسمحوا له بدفن طفله الصغير مع السيدة العجوز ! بخاصة وأن الأطفال الذين يرحلون صغاراً هم عصافير الجنة .

وافق صاحبنا على طلبه وانهال التراب الحنون عليهما ... تحت نظرات الأب المفجوع ... وقريب العجوز الذي كان يتمتم بكلمات مبهمة ...

وفي المساء اكتشف صاحبنا أنه ومن غير أن يقصد ... حقق الحلم الذهبي القديم لعمته ، وأتاح لها أن تضم أحد الأطفال إلى صدرها ! .

قرر العودة ثانية إلى المقبرة لينبش القبر من جديد ، ومن ثم يدفن الطفل في مكان آخر ...

وحين فتح القبر الذي لم يجف ترابه الندي بعد .. ومدَّ يده لإخراج الطفل .. ظهر أمامه حارس المقبرة ـ الذي أضاع أسنانه ـ وأحد رجال الشرطة .. وسأله والغضب يطل من عينيه :

ـ أخيراً وقعت أيها اللص البائس .. كم جثة سرقت حتى هذا اليوم وماذا تفعل بهذه الجثث ؟؟!! .

نظر إليه ببلاهة وقال :

ـ في المخفر سأعترف بكل شيء ... أقسم لك إنني ضحية ... لكن الحقد الأسود هو الذي أوصلني إلى هذا الموقف .

☆ ☆ ☆

□ مسرح الحياة :

قمت قبل أيام ... وقبيل بزوغ الشمس .. بزيارة المقبرة الكائنة في ضاحية قريبة من دمشق ... حاملاً بيدي حزمة من أغصان الآس .. وكان هدف زيارتي .. زيارة

قبور بعض الأحبة والأصدقاء ممن نسيهم الناس ...

ولا شك أن الحديث عن الموتى والمقابر ... أمر غير مستحب بالنسبة للأحياء .. لأن الموت ـ بصورة عامة ـ يصدع القلوب والأوصال ، مرّ المذاق ، صعب لا يطاق ، لكن يشفع لي إنني لا أتحدث عن الموت الحق كواعظ أو فيلسوف ... ولا لإشاعة القلق الوجودي في نفوس القراء .. وتذكيرهم بأن الموت يترصدهم في كل خطوة .. وعلى مدار ساعات النهار والليل ... لذلك فإن المسألة .. مسألة وقت .. ولا بدّ للإنسان أن يحمل على (آلة حدباء) على حدّ تعبير الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى . كعب بن زهير

استرعى انتباهي أثناء وجودي في المقبرة .. ظهور امرأة في العقد الخامس من عمرها .. تقوم برعاية وصيانة القبور المهملة ... وذلك بتنظيف رخامها الشاحب ... وسقاية أزهارها الذابلة بحنان إنساني لا يخفى على المشاهد ...

وحين استفسرت منها عن الجهة الرسمية التي كلفتها بهذه المبادرة النبيلة ... قالت بصوت متهدج :

ـ لا أحد .. إنها مبادرة شخصية .. لأنني أضعت قبر ابني .. فأجد في رعاية القبور المنسية تعزية لي .. وسكينة لنفسي !

ولا شك أن أهل القبور لا يتكلمون .. بل يرقدون في عالم الصمت والسكون والذكرى ... لكن المرء عندما يدخل مدينة الموتى ... ويقف أمام القبور .. تراوده إحساسات غامضة .. واختلاجات سرية متباينة .. كأن يتوهم بأن القبور تراقبه .. وهي مستعدة لأن تستمع إلى ما يريد قوله من آراء .. ومناجاة .. وشكوى ! .

وبالقرب من مكان وقوفي .. شاهدت ضريح المفكر العربي الكبير الدكتور حسين مروة ، الذي اغتيل في بيروت ، ليدفن في دمشق الخالدة ، تنفيذاً لوصيته الغالية ... هذا الرجل الفذ الذي تعلمت منه .. ومن خلال مؤلفاته ، الحكمة ، والمنطق ، وضرورة استخدام العقل .. وتذكرت كلامه : هذه الحياة التي نعيشها على سطح

الكرة الأرضية ، سواء أكانت مأساة شكسبيرية ، أم ملهاة ، أم مهزلة ، هي مسرحية ذكية ، بالغة التعقيد ، وأن قانون المسرح يسري عليها كبداية ونهاية .. وتفاصيل جزئية .. وللمسرح قواعده وأصوله وفنونه .. والشخص الذي يخفق في تأدية دوره ، يخرج من مسرح الحياة عنوة ، وبإيعاز من حركة التاريخ التي لا تعرف التوقف[1] .

☆ ☆ ☆

(١) هذه الحكايات مستمدة من كتابي المخطوط (بطولات على الورق)

ظرفاء دمشق

الظرف ليس فقط خفة الدم – كما نقول – وإنما هو حسن التخلص عند الحرج وسرعة الخاطر وحضور البديهة ...

ومن آداب الظرفاء الإجتماعية ، نستشف حقيقتهم فنعرف ما هم ومن هم ، فقد كان لظرفائنا سلوك اجتماعي ينبيء عن خلق كريم ، ويومىء إلى كمال اجتماعي عظيم ...

كانوا أذكياء لا يجلسون في مجلس ينقلون عنه ، ولا يتصدرون في مكان يحبث يقاسون منه ، وهم لا يتجشأون ، ولا يتمطون ، ولا يشبكون أصابعهم ، أو يمدون أرجلهم ، أو يحكّون أجسادهم ، فإذا تكلم واحدهم فبتؤدة وهدوء وبإيجاز وبيان .

وكان من أخلاقهم قلة الرغبة في الجفاء وحسن المؤاتاة ، ومساعدة الأصحاب والخلان ، يصفحون عن المسيء ، ويبجلون الكبير ، ولا ينسون الترحيب بالصغير .

أما نوادرهم فكثيرة لا يحصيها عد ، ومزاحهم رائق جميل يبعث الابتسامة إلى الشفاه ، والراحة والانبساط إلى النفس[1] .

وفيما يلي ... هذه الكوكبة من الظرفاء الكبار الذين عاشوا في دمشق :

---

(١) أهل النفط العدد (٦٩) ، تموز (يوليو) ١٩٥٧ .

☐ **فخري البارودي :**

فخري بك البارودي

من أعيان دمشق وصفوة سراتها ، وأكبر شخصية محببة إليها ، ليس في المدينة إنسان بلغ سن التمييز يجهله أو لم يره ، وحينما يُهلّ على محفل يقابله النظّارة بالهتاف والتصفيق .

ومن أقوال بعض الأدباء فيه : إن دمشق تستطيع أن تستغني عن الغوطة ولا تستطيع أن تستغني عن البارودي .

وهو أديب وكاتب وشاعر وفنان ، وصدره مستودع ضخم لحوادث الشرق العربي جليلها ودقيقها .

وهو لا يترك المرح والفرح والتندر أبداً ، ومن ثم تراه متطلق الوجه أبداً ، ضاحك الثغر أبداً ، متفائلاً أبداً ، لأنه يحمل بين حناياه قلباً صبياً أكبر الظن أنه لم يبلغ سن العشرين ، وهذا سر القوة الدافقة والنشاط الدائب الذي يتمتع به(٢)

من أقوال فخري البارودي

لو عدت شاباً !

لو عدت شاباً لما فعلت غير ما فعلته من قبل ... ولزدت اليوم على ما قدمته أمس لوطني وأمتي ، فذهبت إلى دوائر التجنيد لتسجيل اسمي في عداد المتطوعين لدفع هذا الخطر الصهيوني البغيض ... أما الشرف فقد كان ، وما زال ثروتي التي لا أتنازل عنها ولو بذل لي كل ما في الأرض من ذهب ! .

(٢) خمسة أيام في دمشق الفيحاء ، علي الجندي ، ص ٩٣ ــ ٩٥ ، مكتبة نهضة مصر .

ووصيتي إلى شباب اليوم أن يسيروا سيري ويقتفوا أثري في خدمة بلادهم بالصدق والإخلاص[٣] .

أسعد يوم في حياتي !

أسعد يوم في حياتي ، هو اليوم الذي تم فيه جلاء جيوش الأجنبي عن أرض الوطن المعذب[٤] .

سبب تقبيلي كل من هب ودب !

القبلة دليل المحبة .. فأنا أحب جميع الناس وأقبل كل من يحبني .. فلماذا كثرة الغلبة .. والقيل والقال ... ؟! .

أيهما أكثر توفيقاً : زواج يسبقه حب أم زواج بغير حب ؟[٥]

والله ما بعرف لا الحب ولا الغرام ، مع هذا يا ولدي التوفيق من الله . هذا سؤال لا يمكن لأحد أن يعطي فيه رأياً قاطعاً ، ومن تجاربي ومعرفتي للناس أستطيع أن أقول إن كثيراً من الذين تزوجوا عن حب قبل الزواج فشلوا ، وكثيراً منهم توفقوا ، وأنا أعطيك مثلاً عن نفسي فإني تزوجت قبل ٣٥ سنة و لم أعرف امرأتي قبل الزواج ، وها هي عندي لا أستبدلها بالحور العين ! وأعد نفسي موفقاً بهذه الزيجة أكثر من كل البشر ... فالله سبحانه وتعالى يبقي لي زوجتي ويوفق جميع العرسان[٦] .

نيويورك أم حلب ؟! ✗

يقول البارودي :

---

(٣) الدنيا ، العدد (٤٦) ، ٢٩ آب (أغسطس) ١٩٤٦ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق .

(٦) الدنيا ، ٢٣ نيسان (أبريل) ١٩٤٥ .

في سنة ١٩٣٨ ، أرادت حكومة أمريكا إقامة معرض دولي فدعت إليه جميع دول العالم ، ومنها حكومة سورية في ذلك الوقت . ولما كان الحكم بيد الإفرنسيين وكانت الحكومة الوطنية المستقلة حديثاً ليس بيدها من الأمر شيء كتب إليّ المرحوم الدكتور فؤاد شطارة رئيس الجالية العربية في نيويورك يطلب مني باسم الجالية التوسط لدى الحكومة السورية للاشتراك في هذا المعرض ليرفع السوريون رؤوسهم بحكومتهم المستقلة ووعدني بمساعدة الجالية لنا بكل ما لديها من إمكانات ، فراجعت الحكومة فاعتذرت لعدم درسها القضية ، وعدم وجود الوقت الكافي لدراستها لقرب موعد افتتاح المعرض ، فتطوعت بالذهاب إلى نيويورك لدرس الحالة على نفقتي الخاصة ، فإذا وجدت بإمكان الحكومة الاشتراك بالمعرض بما يليق بشأن بلادنا اشتركت وإلّا فلا .

فسافرت ودرست الحالة وساعدتني الجالية عند إدارة المعرض فأخذت لها جناحاً خاصاً دون مقابل وطلبت الإدارة خمسين ألف دولار مقابل اشتراكنا بالمعرض تدفعه الحكومة كرمز لاشتراكنا ، وتبرعت الجالية السورية بثلاثين ألف دولار وقالوا إن اشتراك الحكومة بالباقي هو كرمز لاشتراكها رسمياً .

ورفعت العلم السوري بيدي بين أعلام الدول المشتركة ولا يخفى أن أقل دولة صرفت أكثر من مليوني دولار على جناحها فأبرقت إلى الحكومة برقية مطولة أفهمتها إمكانياتنا وطلبت منها الموافقة على الاشتراك فطلبتني إلى دمشق للمذاكرة ، فعدت إلى دمشق ورأيت مقاومة شديدة من الحكومة والكتلة .. فعدت وأحضرت الوثائق التي تساعدني على إقناع المجلس النيابي بلزوم الاشتراك ولكن بكل أسف رأيت معارضة شديدة من الكتلة الوطنية التي كنت أحد أفرادها ! وذهبت إلى حلب لإقناع تجارها بلزوم الاشتراك فوجدت منهم فتوراً ظاهراً ولم يستقبلني أحد من أصدقائي مع أن استقبالي في نيويورك كان حافلاً إذ اشترك ثلاثمائة سيارة تحمل أعضاء الجاليات السورية واللبنانية من نيويورك وبقية الولايات ، الذين أموا نيويورك لاستقبالي ، بعكس حلب التي قام رجال الكتلة الوطنية فيها بمعاكستي ، وقام رجال الأحزاب

المعارضة بمقاومتي أيضاً في المظاهرات التي نظموها في مسجد حلب ، فعدت إلى دمشق متألماً ، وقلت[٧] :

ما لي أرى الناس في الشهبا قد انقلبوا ... أفي (نيويوركٍ) أنا أم هذه حلب
في أرض (سام) وليست من مرابعنا ... قد زارني ألف شخص كلهم عرب
وفي بلادي وبين الأهل أحسبني ... كأنني أجنبي ما له نسب
من ذا أعاتب في قومي وفتيتهم ... ممن بلوني وهل يجدي تُرى العتب
أين الألى كانت الأعداء ترهبهم ... أين الملبون منهم إن هم انتدبوا
أين الرفاق الألى في كل واقعة ... إلى (هنانو) ولي في أمسنا انتسبوا
أما دروا أننا ذا اليوم في خطر ... وفي تفرقنا للأمة العطب
العن (أبا طارق)[١] في القبر من نكثوا ... عهد البلاد ومن في غيهم سربوا
ومن نسوا صالح الأوطان في زمن ... الذل فيه على السكان ينسكب
وسامح الله إخواناً لنا جهلوا ... أن الزمان برمش العين ينقلب
والله يحفظ صحبي رغم جهلهمُ ... وينقذ العرب قومي أينما ذهبوا

أنا صاحب جريدة ! :

يقول البارودي : كانت الصحافة قبل عام ١٩٠٨ غير معروفة بل عديمة الأثر . ولم يكن منها في دمشق غير صحيفة واحدة اسمها (الشام) كان يصدرها مصطفى أفندي الشقللي ، مرة في الأسبوع .

وكان الدمشقيون يسمون الجريدة (كزيطة) ، وهي تحريف كلمة (غازيتا) الإيطالية ، وما يزال بعض الشيوخ من عوام الدور الحميدي يسمون الجريدة « كزيطة » إلى اليوم .

بإعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، فتح باب الصحافة على مصراعيه ،

(٧) تاريخ يتكلم ، فخري البارودي ، ص ٢٨ — ٢٩ ، مطابع ابن زيدون بدمشق ١٩٦٠ .

(١) هنانو

الأساتذة أعضاء المجمع العلمي العربي في أوائل عهد تأسيسه : الجالسون من اليمين : أمين سويد وأنيس سلوم والرئيس محمد كرد علي وطاهر الجزائري وسعيد الكرمي . الوقوف من اليمين : متري قندلفت وعيسى إسكندر المعلوف وعبد القادر المغربي وعز الدين التنوخي

فصدرت في دمشق أول جريدة يومية متزنة وطنية هي جريدة (المقتبس) للأستاذ محمد كرد علي . وكانت إدارتها مجمعاً للعلماء والأدباء والمفكرين من العرب على اختلاف أقطارهم . ومما لا شك فيه أنها كانت الأولى التي نبهت أذهان الناس إلى واجبهم نحو وطنهم . وإذا كان من فضل لأحد عليّ في توجيهي من الناحية الوطنية ، فهو أولاً للشيخ طاهر الجزائري المغربي أستاذنا ، وإلى تلامذته الأحرار ، ومنهم الأستاذ كرد علي الذي صحبته مدة غير يسيرة من الزمن ، علمني خلالها كيف أطالب بالحق وأنادي به .

وفي العام ١٩٠٩ خطر لي أن أصدر جريدة . وهكذا ، دون أن أستشير أحداً ، أصدرت جريدة أسميتها (حط بالخرج) ، وكانت أول جريدة فكاهية صدرت في دمشق ، أخرجتها دون أن أحصل على رخصة من الحكومة ، لأنني كنت أجهل

أن إصدار الجرائد يحتاج للرخصة ، كما أنني كنت أتوهم أن رأس مال الجريدة لا يزيد عن قلم وورقة . وفعلاً أصدرت العددين الأولين بتوقيع (عزرائيل) ، فراجا رواجاً كبيراً ، وكنت أحررها باللهجة العامية .

ولما عرف والدي بالأمر ، قامت قيامته وغضب غضباً شديداً ، وأقسم أن يطردني إذا نشرت اسمي صريحاً على الجريدة . وعلى الأثر اتفقت مع المرحوم (الدده) عارف الهبل أن يضع اسمه في الجريدة ، وأن يتخذ صفة مديرها المسؤول ، على أن أتابع أنا تحريرها ، فقبل . وهكذا وضعنا اسمه في العدد الثالث واستمرت الجريدة في الصدور ، فكان لها ضجة في مختلف الأوساط .

ولما كنت أجهل أصول الصحف الفكاهية ، فقد استحضرت من القاهرة ما توصلت إليه من الجرائد الفكاهية الصادرة هناك ، كجريدة « أبي نظارة » وجريدة « المسمار » ، وجعلت أسير على نهجها ، مما لم يكن معروفاً في دمشق قبلاً .

ولما راجت الجريدة ، ومال الناس إلى هذا النوع من الكتابة ، أخذ بعض الشبان يصدرون جرائد فكاهية أخرى . فلما رأيت أن الجرائد قد تبدلت ، وأن أصحاب الجرائد يبيعون أنفسهم للاتحاديين (الأتراك) مقابل عشرين ليرة عثمانية في الشهر ، تركت جريدتي وانقطعت عنها .

وكان الأستاذ كرد علي قد دعاني مراراً إلى العمل معه في (المقتبس) ، فاعتذرت بانشغالي بجريدتي . فلما تركت جريدتي ، لبيت دعوته ، وقضيت عنده في (المقتبس) مدة تزيد عن السنة ، تمرنت خلالها على الترجمة من التركية إلى العربية . وكان يصحح لي أغلاطي ويشرف على لغتي . وبقيت بعد ذلك أتردد عليه إلى أن سافرت إلى أوروبا[٨] .

---

(٨) مذكرات البارودي ، فخري البارودي ، ج ١ ، ص ٧٩ — ٨١ ، بيروت ١٩٥١ .

قصيدة وحكايتها :

يقول الأديب الكبير الدكتور عبد السلام العجيلي :

القصيدة لفخري البارودي . وهل لي أن أقول اليوم : ومن لا يعرف فخري البارودي ؟ .

أخشى أن شبان اليوم ، واليفعان الذين سيكونون شباباً في الغد ، أخشى أنهم لا يعرفون لصاحب هذا الاسم ما يعرفه أبناء جيلي والأجيال المقاربة لجيلي من صورة لا تمحى من الخاطر وذكرى لا تزول من الوجدان . فخري البارودي ، السياسي الوطني الذي بدأ نضاله في نهاية العهد العثماني واستمر به طوال فترة الانتداب على سورية ، وكان أحد الوجوه الشعبية المحببة إلى القلوب ، كانت له إلى جانب جهاده السياسي مشاركاته الأدبية والفنية المثمرة . بل إنه ، بعد أن نالت سورية استقلالها ، وعندما تولت مقاليد الأمور أجيال جديدة بعقليات وأساليب تختلف عما اعتقده هو وألف العمل في أجوائه ، انسحب من ميدان السياسة وصرف همه إلى الموسيقى .

في هذا الميدان الأخير سعى إلى تسجيل التراث الموسيقي العربي الشرقي وإحياء ما كاد يندثر ، وتبنّي المغنين والعازفين ، وشارك في مجالسه الخاصة بحلقات الطرب ضابطاً الإيقاع على دفه الصغير . وكان إلى ذلك كله ينظم الشعر . ليس الشعر الجزل المغرق في الفصاحة والمشحون بالصور والأخيلة ، ولكنه الكلمات الخفيفة اللطيفة ، الضاحكة أحياناً ، يعبر بها عما يحس به أو يريد قوله بأسهل لفظ وألينه .

من شعره مثلاً نشيد الوحدة العربية الأول الذي شدونا به في طفولتنا وصبانا ، وغُرست معانيه في وجدان الأجيال العربية المتتابعة :

بلاد العرب أوطاني
من الشام لبغدان
ومن مصر إلى يمن ... إلخ .

كما أن من شعره هذه القصيدة التي أوري حكايتها فيما يلي - والكلام ما يزال للدكتور الأديب الكبير عبد السلام العجيلي - : مررت بدار فخري البارودي في إحدى زياراتي لدمشق ذات يوم ، وهو يوم بعيد يعود إلى خمسة وثلاثين عاماً مضت ، وذلك في ضاحية كيوان في أول طريق بيروت . قال لي : اسمع هذه القصيدة التي نظمتها في الورد . وكان الورد رفيقه الدائم ، إذا لم تكن بين أصابعه زهرة يرفعها إلى أنفه متشمماً إياها بين لحظة وأخرى فهي في عروة سترته . قال لي بعد أن تلا القصيدة : كيف تجدها ؟ قلت : بديعة ... تفضل واملها علي ، أريد أن احتفظ بها ، أو أحفظها . فهز كفه أمامي وقال : لا يا بيك ... لن تفرح بها ، ولن ينقلها عني إنسان .. نظمتها لنفسي .

ضحكت أنا يومها و لم ألح في الطلب ، متوقعاً أن تتاح لي الفرصة ذات يوم فأستعيد منه القصيدة . وتركت دمشق بعد تلك الزيارة عائداً إلى بلدتي الرقة . وحدث أن وفدت عليّ في الرقة بعد أيام قلائل صحفية باريسية شابة ، هي الآنسة ر . ب ، تحمل وصية من أصدقاء لي في وزارة خارجيتنا ، لأعينها في تجوالها في أنحاء بلادنا . كانت تلك الفتاة الفرنسية تتكلم العربية بطلاقة ، وتجاهر بحبها لأمة العرب التي تعرف الكثير عن مزاياها . حدثتني عن إقامتها في دمشق وعمن تعرفت فيها عليهم ، ومن بين أولئك فخري بك . قالت لي : لقد كتب لي بخط يده قصيدة أعجبت بها تتحدث عن الورد الذي يحبه ... القصيدة في محفظتي ، هل تحب أن تسمعها ؟ ابتسمت وأنا أقول لنفسي : إنها القصيدة التي بخل عليّ هو بها ! وكانت حقاً هي . وهذه أبياتها كما نقلتها من زائرتي اللطيفة :

الورد الوفي

الورد أوفى صديق ظل يصحبني — من مشرق العمر حتى هدني زمني
أحببته فجعلت الصدر موضعه — أوليه حبي في سري وفي علني
ما كان لي فرحة إلا وشاطرني — بها السرور ولم يمنن عليّ بمنن

← في اليسر في العسر في يوم للقاء وفي — يوم الوداع بروح الأُنس يسعدني
فإن أقم دعوة زينت مائدتي — به وباقاته الزهراء تغمرني
أو علة نزلت بي فهو أول من — يزورني ويواسيني ويؤنسني
وبعد موتي ودفني ، من يشيعني — يعود والورد في رمسي يعانقني
فهو الوحيد الذي يبقى على جدثي — في وحدة القبر يبكي خادم الوطن

ويرى القارىء معي بساطة لغة هذه الأبيات وسذاجة معانيها . ومع ذلك فهي أبيات مؤثرة ومثيرة للحزن ، ولا سيما لمن يعرف فخري البارودي حق المعرفة ، يعرف من هو وكيف قضى حياته من بدايتها إلى خاتمتها : إنه خادم الوطن ، كما سمى نفسه . فهو الرجل الذي ما سخّر شعبيته ، ولا الثروة التي ملكها ، ولا النفوذ الذي كان له ، لنفعه الشخصي . لقد صرف جهده وأنفق ماله في خدمة مصلحة وطنه وتراث أمته . هجر بيته العريق في حيّ القنوات في ظروف مادية عسيرة ، إلى منزله في كيوان الذي حلت عليه لعنة تناحرنا السياسي ، فاحترق بنيران قنابل محاولات الانقلاب ، واحترقت معه مكتبته الموسيقية الثمينة وغادر هذه الدنيا دون أن يُعْقِبَ من زواجه ولداً يحفظ اسمه . وكان خله الوفي هو الورد الذي قال فيه :

فهو الوحيد الذي يبقى على جدثي — في وحدة القبر يبكي خادم الوطن

الدكتور عبد السلام العجيلي

كما كان منتظراً ، عدت في زيارتي التالية لدمشق إلى تلك الدار في كيوان وإلى لقاء فخري بك فيها . وعندما رحت أتلو عليه قصيدته صاح بي : من أين لك هذا ؟ ضحكت وقلت : ر . ب يا بيك ! قال : كيف ؟ عاهدتني على أن لا تعطيها لإنسان . فقلت متمثلاً :

وإن حلفت لا ينقض النأي عهدها
فليس لمخضوب البنان يمين

فضحك مسلماً بما جرى ، وقال : الملعونة[9] ! ..... .

□ **فوزي تللو :**

والطريف اللذيذ فوزي تللو – على حد تعبير محمد عبد الكريم – أمير البزق – يعجبني منه أنه يبحث عني في كافة مقاهي دمشق – والكلام ما يزال للأمير – حتى ألاعبه (برتيه كونكان) وهو لا يكتفي بأن ألاعبه بل أنه ينطلق ليضع الشهود حوالينا حتى إذا ما فاز وقف على الطاولة يصيح من الفرحة .... وهنا لا أجد بداً من الصعود إلى الطاولة التي صعد إليها كي أرفع له يده علامة الإنتصار[10] .

□ **صلاح المحايري :**

الدكتور صلاح المحايري يعتبره أمير البزق ظريفاً بحق وحقيق ... نظراً لخفة دمه . ثم لأنه يكلمك في كل شيء على صعيد الفلسفة . فالأكل له فلسفة .. والحديث له فلسفة .. إنه باختصار يفلسف كل الظواهر الإنسانية والطبيعية[11] .

□ **أبو درويش سويد :**

كانت حكايات ودعابات وقفشات (أبو درويش سويد) مادة غنية لمجلة المضحك المبكي الشهيرة ، حيث احتل رسمه المتميز ، عشرات الأغلفة من المجلة المذكورة المحتجبة .

وكان (أبو درويش) في نكاته ... وتعليقاته الساخرة ... يشكل رأي المعارضة السياسية ضمن اللعبة الديمقراطية التي كانت سائدة في سورية خلال مرحلة الخمسينات . بالإضافة إلى ذلك فإن الأفكار والأقوال التي كانت تنسب إليه كانت

---

(٩) الجيل ، أيار (مايو) ١٩٩٠ .

(١٠) الدنيا ، العدد (٦٢٤) ١٥ شباط (فبراير) ١٩٦٣ .

(١١) المصدر السابق .

تعبر بدورها عن نبض ووجدان ورغبات رجل الشارع السوري .

وربما كانت شخصية محجوب ثابت ، الرجل الضاحك في مصر ، والتي استفادت منها الصحافة الفكاهية الصادرة في القاهرة آنذاك ، هي طبق الأصل ، أو مشابهة إلى حد كبير لشخصية (أبو درويش سويد) ... وأبو درويش سويد ، كما يذكر الأستاذ الفاضل بدر الدين الشلّاح ، شخصية شعبية نادرة . كان والده ضريراً يبيع « الشنان » على ظهر الحمار ، و « الشنان » مادة مطهرة رخيصة تقوم مقام الصابون . وكان (أبو درويش) - واسمه الحقيقي مصطفى سويد - يقود الحيوان ممسكاً بالرسن ، ولما عجز أبوه خلفه في هذه المهنة الفقيرة الشاقة ، وكان يقدم لأبيه كل يوم ما ربحه فيرضى عليه ويتوسل إلى الله لتوفيقه ، وما هي إلّا أيام حتى أصبح (أبو درويش) منتجاً « للشنان » ، وتاجراً بالجملة لهذه المادة ، وسرعان ما دخل ميدان التجارة ولمع اسمه فبات يغشى مجالس العظماء والرؤساء حيث لاقى نجاحاً كبيراً لخفة دمه وحلاوة حديثه وقدرته على إطلاق النكتة في الوقت المناسب ، وكانت نكاته كلها فيها دروس وعبر وحكم ، ويعتبر - والكلام ما يزال للأستاذ الشلّاح - من الشخصيات النادرة التي لا يجود الزمان بمثلها إلّا مرة كل مائة عام . وقد دون حكاياته وفكاهاته المرحوم العلّامة الشيخ أبو اليسر عابدين وهي موجودة في مكتبته (*) .

والآن نترككم مع هذه الرسومات السياسية الساخرة : ←

□ أحمد الجندي :

هو شاعر متفنن في طبعه وروحه ، له موشحات بديعة نظمها للتلحين ، يهوى سماع الأصوات الحسنة فيهيم طرباً ، وكفى أن يكون وجوده في المجالس الفنية ضمانة كبرى للصفاء والبهجة أو التجلي ، إذا دمدم بصوته الرخيم امتزج بالألحان امتزاج الماء القراح بالراح ...

(*) للتاريخ والذكرى قصة جهد وعمر ، بدر الدين الشلاح ، ص ١٠١ دمشق ١٩٩٠ .

أبو درويش المنجم لدولة رئيس الوزراء :

شوف يا دولة البك .. قدامك بناية لها قبة ، وتحت القبة جماعة عم بتآمروا عليك ، فإذا كنت شاطر افطر فيهم قبل أن يتعشوا فيك ...

الأستاذ الدواليبي بعد أن ركب رئاسة المجلس :

صحيح يا أبو درويش الجوعان ما هو مثل الشبعان والراكب ما هو مثل الماشي ...

أبو درويش وهو على الصليب يرفع برأسه إلى السماء ليناجي ربه على طريقة السيد المسيح ويقول : — إلهي .. إلهي .. لماذا تركتني

[redacted]

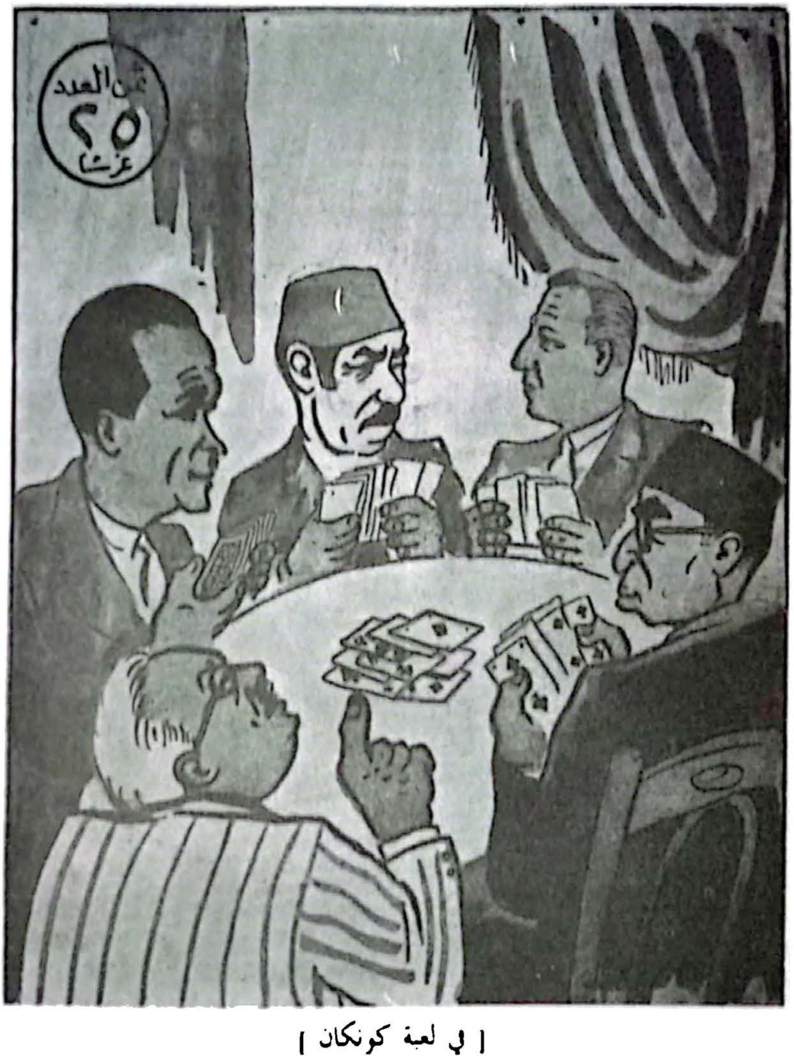

[في لعبة كونكان]

أبو درويش للوزراء اللاعبين .. إذا كنتوا عم تلعبوا ها الشكل كلكم رايحين

[على حريق] ....!!

أبو درويش ــ ليش كل هالقد مكبر الطبخة وانتو كلكم زلمتين ونصف ؟

وزير المالية ــ مانك شايف قديش في أيدي ممدودة وكلها بدها تاكل ..

الطباخ هو عبد الرحمن العظم ابن فريد العظم من حماه

أبو درويش يصلي ويقول : – اللهم اجعل مواسمنا المقبلة حسنة لنبيض وجهنا أمام الحكومة فندفع لها ما تطلبه منا من ضرائب ورسوم

وأما نثره فنوع من الحكايات والأقاصيص التي تتخللها النكتة فهو يميل إلى تخفيف عن القارىء بدلاً من أن يثقل كاهله ... وهو المعي في ذكائه وفراسته ، أنيس في معشره وطريف نوادره[١٢] .

وفيما يلي هذه الحكايات والطرائف التي كان بطلها أديبنا الراحل أحمد الجندي (أبو حيان) .

الشاعر الناري :

أحمد الجندي

في أحدى الأمسيات الشعرية .. وقف أحد الشعراء يلقي قصيدة نارية .. من النوع الحربي .. فبين كل رصاصة ورصاصة .. قذيفة مدفع .. وبين كل خنجر وسيف ، صاروخ أو رمح ... وبين كل دبابة وطيارة ، بارجة حربية .. وقنبلة صاعقة ! .

فما كان من أحمد الجندي إلّا أن وقف من الصف الأمامي ، واختبأ خلف الكرسي !! فاستغرب الحضور تصرفه .. وتوقف الشاعر عن إلقاء القصيدة وسأله مستغرباً ، هل هناك شيء أستاذ أحمد !؟ فإجاب : لا . ولكن أخاف أن أصاب برصاصة أو سكين أو قذيفة من قصيدتك العصماء[١٣] !! .

أنا القدر :

أحد الشعراء الجدد ... كتب في إحدى الصحف اليومية قصيدة من الشعر الحديث طبعاً .. جاء فيها :

---

(١٢) أعلام الأدب والفن ، أدهم آل جندي ، ج ١ ، ص ٧١ .

(١٣) السؤال ، العدد (٥) آب (أغسطس) ١٩٩٠ بقلم الزميل الأستاذ عبد الرحمن الضحاك ص ١٢٥ .

وسرت في طريقي ..
لا أعرف غربي من شرقي ..
وحبيبتي عند موقف الباص .
والقدر يلعنني !

وفي اليوم التالي ... تلقى ذلك الشاعر مكالمة هاتفية ، من أديبنا الراحل.. ولما سأله عن المتكلم أجابه أنا القدر ... وأغلق الهاتف[١٤] .

منجم :

شاعر صاعد ... كتب قصيدة بعنوان (عيونك منجم) حملها إليه وراح يسأله رأيه ... وعندما قرأ العنوان قال له :

ـ ما دخلي أنا ... اذهب بقصيدتك إلى وزارة النفط والمعادن[١٥] !!

ليتني كنت أمياً :

يقول أحمد الجندي : سرحت من العمل في إحدى المجلات الحكومية ، وحين ذهبت بعد أيام لأقبض التعويض وجدت مكاني ثلاثة كتّاب فجلست مكاني وكتبت لهم هذا البيت :

وددت لكثرة الكتّاب حولي لوَ أني ما قرأت ولا كتبت

(١٤) المصدر السابق .
(١٥) المصدر السابق .

شفاعة :

ويضيف الأستاذ أحمد الجندي :

كتبتُ إلى رئيس أحدى الدوائر وقد طال انتظاري لمشكلتي :

إني أتيت إليك أسأل حاجة ... طال انتظاري عندها ووقوفي
فإذا أذنت فأنت أفضل صاحب ... والفضل لا يحتاج للتعريف
ما زال مشكلنا يروح ويغتدي ... ما بين قائد فرقة وعريف
فاذكر هداك الله خلّاً صاحبا ... يحيا على التأجيل والتسويف

يوسف الحسن :

جُنّد ولدي وكان له رئيس شديد اسمه يوسف ، فطلبت له أذناً وقلت لرئيسه :

يا يوسف الحسن إن الحسن عندكم ... شيء أصيل وعند الناس مصنوع
لي عندكم ولد يا بؤسه ولدا ... كأنه فرخة أودى بها الجوع
أصابني الويل منه في دراسته ... إن الكسول على الاهمال مطبوع
أتيت أرجو له إذنا يساعدني ... فيه لعلّ رجائي اليوم مسموع[16]

أنا في لبنان (١٩٥٤م) :

نشأت محباً للسفر أهفو إليه إذا بعُد أوانه واشتاقه إذا انعدمت أسبابه ، ولكن السفر إلى لبنان أشبه بـ (سفر برلك) لأن لبنان فيه الغلاء الفاحش .. وفيه السرعة التي لا فائدة فيها إلّا الإزعاج وإفساد الحال .

ولقد وطئت قدماي أرض بيروت ، وما كادت تمسها حتى أحسست بالنار تشب في جسمي ، كأنني نزلت على فرن مسجور أو كأنني ألقيت في تنور ، ولذعت ريح السموم وجهي كأن إنساناً يصفعني عليه ، وأخذ العرق يتصبب من جبيني

(١٦) هذه النوادر أوردها زميلنا الصحفي الكبير الأستاذ أسعد السمان – رحمه الله – .

ووجهي وعلى عيني فيلهبهما ويزيد من ألمهما ، فإذا مسحت على وجهي بالمنديل أصبح المنديل ماء ، ولكنه ماء يشوي الوجوه فإذا مددت يدي إلى عيني ازداد اللهب واضطررت للوقوف مرتبكاً محتاراً .

هذه هي بيروت في شهر آب ومن عجب أن ترى الناس فيها ، فهم يسيرون وكأنهم في نزهة وأنت ترى أهلها وقد نزعوا عنهم أكثر ثيابهم وضربوا بالوقار عرض الحائط ومشوا وكأنهم في بيوتهم لا في شارع عام ... وأخذتُ أنزع كل يوم عني قطعة من ثيابي حتى ظهر أكثر جسمي (النحيف) وحتى لاحت للعين مخائلي وملامحي ورحت أنظر لنفسي كأني وحدي في الحمّام .

أما وجه الصعوبة في لبنان فيمكن إجماله في بعض الأمور ، وإن كانت المظاهر تختلف عما اعتدنا عليه ورأيناه . وأول المصاعب تلقاك من النقل إلى ساحة البرج وهي الساحة الرئيسية في البلدة فتجد السائقين وقد تجمعوا من حواليك بلا لطف ولا لياقة ولا محاسنة أو مسايرة وقد شكل كل واحد منهم دخينته بجانب فمه ووضع يديه في جيوبه وأخذ يصرخ في وجهك عالياً : بحمدون ... صوفر ... إلى آخر

أحمد الجندي .. في صورة رمزية وقد عرف عنه حبه الشديد للأركيلة

هذه المقبلات المشهيات ... فإذا خدعك القدر واستسلمت للزبانية أخذت أخذ عزيز مقتدر ووضعت في السيارة وضعاً لا رأي لك فيه ، وأغلق عليك الباب كأنك مجرم في (النظارة) ، وفي هذا الأتون الحامي من الحديد والخشب وقد لفحته الشمس ولوحه الهجير وأحسست كأنك قد دخلت في جحيم مؤقت ، ثم تنتظر ، وتنتظر إلى أن يأذن الله بالفرج ويأتيك من يكمل لك (ملاك) السيارة وهو لا يقل عن خمسة أشخاص فإذا كمل هذا العدد بدأت المأساة :

أما المأساة هذه فهي في السير السريع الخاطف ، إذ ما يقعد السائق وراء المقود يمنة ويسرة ثم يمرق بك مروق السهم بين هذا الازدحام الهائل ... فإذا بلغت ظاهر المدينة انطلقت بك السيارة كالصاروخ فيطير شعرك وينفتح قميصك وتعطل رجلاك وتغمض عيناك من شدة الهواء ، وحذار أن تحاول تخفيف السير بالإشارة أو الحديث أو النصح أو الإرشاد لأن ذلك معناه الإساءة إلى السائق ، أنه هو كل شيء في السيارة ، والركاب جماعة لا قيمة لهم لأن المخاطرة تشمله كغيره فليس لغيره أن يخشى أو أن يخاف على روحه وليس له أن يعرقل « مزاج » السرعة عند « حضرته » كل هذا والسيارة طائرة تكاد تقفز عن الأرض لتتعلق بالسماء ، ويزيد في الرعب والهول هذه السيارات الطائرة القادمة من الجبل إلى العاصمة الملتهبة . والتي تمر بك كالخيال الطائف . وأقسم أنني ما صعدت إلى الجبل أو نزلت منه إلا وشاهدت أثراً للحوادث المميتة القاتلة من اصطدام أو انقلاب أو دهس دون أن يؤثر ذلك في عقلية السائقين الذين أتقنوا درس سرعة القيادة والمغامرة السخيفة المؤذية .

فإذا وصلت إلى إحدى قرى الجبل كان عليك أن تنزل في فندق ، فإن وصلت إلى مكتب المدير رأيته قد تربع على عرشه ونظر إليك متأملاً مفكراً ثم تلقاك بجملة رصينة جشاء : أمر !؟

وتحار فيما يريد هذا الرجل الذي لم يستقبلك ولم يرحب بك ولم يبتسم أو يتكلم ، بل هذا الرجل الذي ينظر إلى زبائنه نظرته إلى أناس يقومون بواجبهم لا

أكثر ولا أقل . وتفاوضه في الأجر فيصر على أن تكون عنده نزيلاً « كاملاً » وهذه يقولها حضرته بالفرنسية complet أي إنك مضطر للأكل والشرب عنده ودفع أجر لها ، سواء أكنت من الآكلين أو الصائمين أو المحمومين وتقبل مرغماً . وتضع أشياءك وتذهب لقضاء يومك في أحضان هذه الطبيعة التي وهبها الله كل أنواع الجمال مجمعة في ربوع لبنان ، ولكنك ترجع في المساء لتجد نفسك في غير الغرفة التي رأيتها ظهراً ، أو لتجد سريرك وقد أناخه طول احتمال الجسوم والأشخاص فإذا حاولت المناقشة كان الجواب في ترك الخيار لك بين أن تغادر الفندق إلى الهواء الطلق أو أن تنام على مضض نومة كلها حنق واضطراب ...

فإذا أفقت من نومك بعد ساعات أو أيام وجئت للحساب أعدت لك القائمة « السوداء » لتهيىء لك إفلاسك وخراب بيتك العامر ، وتتلاح أمام عينك الأرقام وقد جاوزت الحد المعقول ... ويطلع عليك الجمع الأخير مضافاً إليه أجر الخدمة عشرة بالمئة ، ومزيداً عليه فرق العملة الذي يبلغ ١٣٪ فإذا بك وقد دفعت نصف مالك دون هوادة أو لين أو نقاش ، وما تكاد تأخذ بأشيائك حتى يلحق بك النادل والخادم ومعاون الطباخ وسكرتير المدير ، بل ربما لحق بك المدير نفسه يطلب منك الجُعْل « البخشيش » وربما شدك هذا من يدك أو وكزك ذاك في ظهرك لتخرج من المعمعة وكأنك تخرج من عالم شاذ .

هذا هو لبنان الذي رأيته آسفاً عام (١٩٥٤) ، وهذا هو الاصطياف الشاق الذي قضيته محرجاً مغضباً وما زلت منذ أن عدت إلى دمشق أصرخ من أعماق صدري : واقطيعتا[١٧] ...!!

أنا في الطائرة (١٩٧٠) :

منذ أن سمعت باختراع الطائرة وأنا أكرهها ولا أطيق لها ذكراً لأني مؤمن إيماناً

(١٧) الجندي ، العدد (١٦٠) ، ١٦ نيسان (أبريل) ١٩٥٤ .

لا شك فيه بأن هذا الاختراع عمل غير كامل وهذا الاكتشاف اكتشاف خطير على الحياة الإنسانية وإلّا فكيف يتصور المرء إنساناً راكباً في صفيحة من البنزين لو مرت بها القسمة لالتهبت وذهبت أدراج الرياح مع كل من فيها ...

ولا أدري كيف يطمئن هؤلاء الرائحون المسافرون في هذه الآلة التي لا ضمان لها ولا أمان ، إذا اختل مسمار أو تنفس أنبوب أو مال جناح فمصير كل مخلوق فيها إلى العدم الذي لا وجود له ... لا بل إن من يموت في أحداث هذه الآلة الملعونة لن تعرف هويته ...

خطرت على بالي هذه الأفكار كلها وأنا أصعد سلم الطائرة المسافرة بي إلى بغداد وكنت مدعوا مع عدد من الأدباء العرب للمشاركة في مهرجان الشاعر أبي تمام في بلدة الموصل عام ١٩٧٠ .

لم أصل إلى منقف السلم حتى أحسست بتخاذل رجليّ واضطراب نظري وانفتال رأسي ولسوء حظي كانت الطائرة ملأى بالراكبين من الباب إلى المحراب .

جلست في المقعد الأخير مستنداً إلى حائط الطائرة الخلفي زائغ العينين حائراً فيما أصنع ، وأخذت المحركات تئز أزيزاً يخلع القلب وراح جسم الطائرة الكبيرة يهتز ويترجّج ثم أخذت تتحرك وكأن قلبي يتحرك معها إلى أن زفرت زفرة شنيعة قوية وقفت على أثرها هلعاً ورعباً وأحسست أن جسمي يرتفع مع أنني لم أزل في مكاني ولكن الطائرة هي التي أخذت ترتفع مائلة حتى خفت أن اتدحرج إلى خارجها ولقد حمدت الباري تعالى على أن ستائر الطائرة كانت مسدولة بحيث لا يرى المرء خارج الطائرة من اليمين إلى الشمال ولقد حاولت راكبة من المسافرات المنديات ، وكانت قريبة مني ، أن تميط الستارة لتنظر إلى الجو الرهيب الذي تخرقه الطائرة ولكني هجمت عليها ورجوتها أن تتركها مسدولة لأنني لا أستطيع أن أنظر إلى الجو ، فابتسمت ونظرت إليّ كأنها تنظر إلى مجنون أو طفل صغير . ورأيت إلى جانبي الآخر رجلاً كفيفاً يتحدث ولا يدخل لسانه في فمه وكانت أعصابي

المؤلف والشاعر الكبير عبد الله البردوني

المنهارة لا تحتمل اللفظ والكلام الكثير ولكني سكت مرغماً حين علمت أنه الأستاذ عبد الله البردوني شاعر اليمن الذي كان يرافقني في هذه الرحلة ممثلاً لليمن الشمالي .

محمود حسن إسماعيل

ونظرت إلى أمامي فرأيت رجلاً ضخم الرأس وقد وقف شعره كأنه حقل من المسلات الحادة وقد أمسك بيده مشطاً كبيراً من الحديد راح يمشط به شعره القاسي الكثيف . بحيث كان يسمع له صوت كصوت الآلة وحاولت أن أشيح بنظري عنه ولكن ملكة الفضول عندي دفعتني لسؤاله عن شخصه ومن أية البلاد هو فعلمت وأنا خجل أنه الشاعر المصري المعروف المرحوم محمود حسن إسماعيل صاحب الدواوين الكثيرة والذي كان في يوم من الأيام مسؤولاً عن الناحية الأدبية والفنية في إذاعة القاهرة .

واستمرت الطائرة تتأرجح بي وترتفع شيئاً فشيئاً وأنا أحس بقلبي يرتفع في صدري تبعاً لارتفاعها ، ووجدت قريباً مني شخصاً مسناً يكاد يكون من سني ، وهو يربت على كتفي ويقول لي : انظر النار من المحركات ، ونظرت فرأيت فعلاً شيئاً يلمع من محركات الطائرة فكدت أن يغمى عليّ وتخيلت أن النار دبت في الطائرة وأن النهاية قد قربت ، ولكن امرأة إلى جانبه انتهرته وصاحت به كي يترك هذا الحديث وأن يقلع عن هذا المزاح الذي يزعجني ولفتت نظره إلى ما بي من اضطراب وخوف لا يحتملان مزاحاً . ولكن الطائرة عادت إلى الاهتزاز . ووزع علينا الطعام فلم أذق منه شيئاً فلم أكن ساعتئذٍ قادراً على المضغ والبلع وأنا في السباق ، وظللت هكذا فاغراً فمي زائغاً بصري حتى سمعت المرأة تقول لي اطمئن يا أخي ، اطمئن ، ها هي أضواء بغداد . ونظرت فرأيت الأضواء حقاً في مطار المدينة العباسية وعدت إلى طبيعتي شيئاً فشيئاً إلى أن جلست جلستي الطبيعية والسيدة الكريمة تنظر إليّ من فوق عينها باسمة بسمة الاطمئنان وأخذت تحدثني شيئاً فشيئاً ، إلى أن سمعت المضيفة تنبهنا إلى ضرورة ربط الأحزمة وتساءلت أية أحزمة ؟ وإذا الحزام تحتي على المقعد الذي أجلس عليه وقد نسيت وجوده ، وهنا كانت المشكلة ، لقد حاولت ربط حزامي فوجدته أضيق من أن يحتوي جسدي ، وحاولت ذلك بشتى الطرق ولكني لم أصل إلى نتيجة ، ونظرت إلى المضيفة فأشفقت عليّ ، واقتربت مني وحاولت أن تساعدني في مهمتي الحزامية ولكنها فشلت كما فشلت فقد كان الحزام قصيراً بالقياس إلى جسمي الفسيح (الضخم) ورجعت المضيفة إلى مقدّم الطائرة فأحضرت قطعة حزام إضافية لتصلها بالحزام الأصلي . وهكذا اضطرت المضيفة إلى اللجوء إلى حزامين بدلاً من حزام واحد ، ونظرت إليّ حين انتهت من مهمتها الصعبة وهي منكفئة عني وابتسمت مشفقة راضية عني بعد أن سببت لها ما سببت من تعب وجهد .

وحين نزلت من الطائرة أحسست بيد ناعمة ملساء تمسك بي وأنا أنزل على سلم الطائرة . وقد ترددت قبل أن أضع رجلي خشية الوقوع بعد أن حمدت المولى

على أني صرت على الأرض بعد أن كنت معلقاً عند السماء في الفضاء ...

كانت تلك المرأة العاقلة الشفوق هي سيدة الرحلة التي أصفها لك فقد كانت أديبة معروفة رافقتني في رحلتي وتركت في نفسي أثراً لا يمحى . لقد كانت أصغر مني بعشرات السنين ولكنها ملأتني احتراماً حتى خيل إليّ أنها أمي لما لقيته من كرمها وعطفها وإشفاقها[١٨] .

أنا والأركيلة :

لولا تكاسله لكان الأستاذ أحمد الجندي يتربع على عرش من الثروتين المالية والأدبية ، لقد قبل بالثروة الثانية وترك أختها الأولى الأهم تبحث عن غيره لأنه أراد أن يعيش حياته كما هي ...

خرج إلى الحياة فعبَّ منها وعرف سرها فلم (يحمل السلم بالعرض !) بل ضحك إلى الجميع حين أوهمهم أنه معهم جميعاً ، هو يعلم جيداً أن الكتابة الساخرة فن ، لذا امتدح جيمع الذين كتبوا على طريقته ليظل وحده في طليعة فرسان هذا الميدان الرحب . علّمته الحياة أنه من السخف أن ينصرف إلى الأدب الجاف ، لذلك كتب ليضحك الناس ويضحك هو مع الناس . والآن نترك الكلام لأديبنا الراحل الكبير :

كنتُ في أيام الشباب الباكرة أرى في (الأركيلة) شيئاً عجباً ، وكنت إذا مررت بشرّابها التفت مرغماً إلى قوامها الممشوق وهيكلها الأنيق ، وأخذت عيني ، هذه الأمواج الصغيرة المتصاعدة المتنازلة في نهايتها ، وأصخت بسمعي إلى القرقرة تنبعث منها بجرس رتيب منغوم ، ثم رمقت هذا الذيل الذي ينحدر من وسطها منعرجاً متموجاً ، وتفرست في وجه شاربها لأراه وقد أمعن في إطراقه وتجمع فوقها يحنو عليها ويعجب بها ، ودهشت لهذا النعيم الذي يغمر وجه صاحبها حتى ليدل على

---

(١٨) أضواء ، العدد (١٨٨ و ١٨٩) ١٩٨٩ .

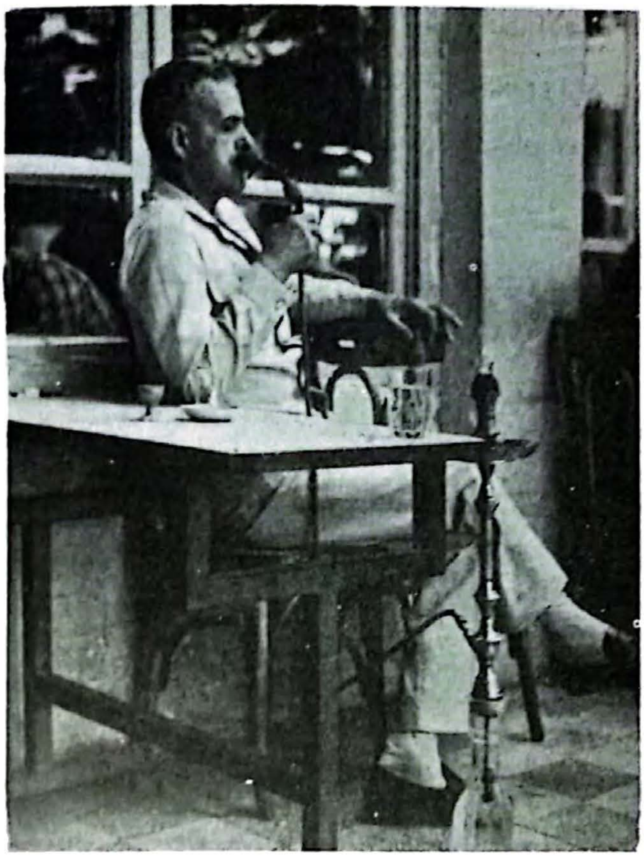

النعمة الوارفة واللهو المريع والكسل الخصيب ، وكثيراً ما كنت أمني النفس بلقائها في يوم من الأيام لأغدو صديقها ولأصبح أليفها ، فإن أصحاب القلم من أحوج الناس إلى الهدوء ومن أجدرهم بهذه الخلوات الطيبة المأنوسة .

ولكن رغم احتفالي بها ما كنت أجرؤ على التعرف إليها معرفة تجعلني من هواة الدخّان أو أصحاب سيدنا (طهماز) غفر الله له وأرضاه ، ولقد حاولت مرات أن أنفث دخانها ، ولكن الدوار عاقني عن ذلك فمججتها وأنفت منها واستبحت لنفسي أن أعرض إعراضة المشيح لكي لا أرجع إليها البتة ، ولكن دافعاً مجهولاً كان يمسك بي ويعيدني إليها لأديم النظر إليها ولأستمر على الإعجاب بها .

وكان يوم ... فقد أزمعت إزماع الذي لا يرجع عن رأيه على ترك (السيجارة)

وتركتها وأنا منها بين الكره والخوف ، فقد عييت بأمر أولئك الأطباء الذين يكيلون التكهنات كيلا فيتحكمون بصحة الناس على التقدير والتخمين وتركت الدخّان كله واستغنيت عن هذه المتعة التي يعرفها من عرف لذة الدخان معرفة صحيحة .

وانتظرت أياماً وشهوراً وسنين عدداً ، ثم نظرت إلى نفسي بعد هذه المدة المتطاولة فوجدتها قد فقدت شيئاً هاماً في تاريخها ، لقد فقدت رفيقاً وافتقدت جليساً صاحباً لم أشك منه ريبة ، وصديقاً لم يكلفني عتاباً .

غير أني حين تركت هذه العادة شعرت بشيء من الفراغ في أناملي ، وفي فمي وفي

لا ... عاوز أركيلة !!...

والآن محاضرة عن أضرار التدخين

رئتي وأحسست بالحاجة إلى هذه الرائحة التي لا تشبهها رائحة في الكون ، رائحة فما صدى في النفس ، وعبق في الجوانح ، وأخذت أداعب أصابعي ، أو أدغدغ شعري كلما حفزتني الحاجة إلى الكتابة ، ولكن هذه الحركات لم تنم إلّا على العصبية ، ولم تكن تفصح إلّا عن حاجة ملحة إلى ما يشغل الأعصاب فيعينها على تحمل أعباء الكتابة الصحيحة المفكرة .

ووجدتني بعد أيام أصرخ في وجه صانع المقهى : أركيلة ...!!

واستغرب أصحابي ، بل لقد استغربت أنا ذلك أيضاً ، فقد كنت نفضت يدي من السيجارة إلى الأبد ... وأخذت أنبوب الأركيلة (البربيش) أخذة الخائف المشفق ، ولكن الحاجة إلى التسلية حجبت عني كل تردد ، ورأيتني ، بعد شهقات عدة ، تنبسط أساريري ... وإذا بي أمتشق القلم وأبدأ بالكتابة ، وكأن ذلك كان أول عهدي بها .

أما اليوم فأنا أنزل إلى المقهى لأخذ أنفاسي المقهقهة من الأركيلة الأنيقة ، وأتنفس هذا الدخان الأبيض ثم أخرجه من فمي بطيئاً يشيع في الفضاء الصغير حولي ، وهكذا قويت الصداقة بيني وبين أركيلتي وأحكمت الأواصر معها حتى ما تراني إلّا معها ولا تراها إلّا معي ، وهي عندي اليوم صديق وصاحب أجلس إليه إن حزّبني أمر .. أو جار على دهر[١٩] .

انتصر بالكلمة على عدمية الموت :

يقول الدكتور عبد اللطيف اليونس في شهادة له عن الشاعر الراحل أحمد الجندي :

(... ومن العسير ـ بل من المحال ـ أن يسبل النسيان ثوبه الصفيق على تلك الشخصية النادرة ... التي كانت تجمع المرح إلى الجد .. والدعابة إلى الواقع ..

---

(١٩) مجلة النبغ ، العدد (٤) ، أيار (مايو) ١٩٥٩ .

والفكاهة إلى الحقيقة التي تنطلق منها .

كان أشبه ما يكون بـ « الجاحظ » و « أبي حيان التوحيدي » نكتته معبرة ، وهادفة موحية ، أما هما فقد سجلاها ... وأما هو فلم يفعل .

ومجلسه .. لم يكن ثمة ما هو آنق وألطف وأظرف وأمتع وأحلى وهيهات .

وأسلوبه الأدبي .. له طابعه الخاص بالإشراق والعذوبة والشمول رحمه الله) .

ـ الثورة ، العدد (٨٣٠٧) ٢٢/٧/١٩٩٠ ـ .

□ **محمد صبحي أبو غنيمة :**

الدكتور صبحي أبو غنيمة

هذا الجسم المكور والمدور ، وأمامه بوق الأرجيلة وفي فمه حبلها الطويل يناجيه ويناغيه ، ثم يتحدث همساً وجرساً ، كأنه النسمة الطيبة ، والنغمة الشافية ، ومن حوله أصدقاء تخطّوا عتبة الشباب بسنوات يريقون الحكمة ، ويسيلون الفضل ، وكأنهم سيال من نبع بعيد كله التجربة وكله الصراخ والعويل في وجه المفهومات السطحية ، حتى لكأنهم أهل الكهف وقد قدموا من أصالة الحياة يفزعون فيها أرباب الغرور والصلف والكبرياء ...

والدكتور محمد صبحي أبو غنيمة على الرغم من أنه أردني الجنسية ، وعربي القلب والفؤاد ، فقد عاش مدة طويلة من الزمن في دمشق ، وتلقى تعليمه في (مكتب عنبر) الشهير ، وله عشرات المواقف الوطنية الجريئة ضد التواجد الأجنبي بكافة أشكاله وصورة في المنطقة العربية .

وكان للدكتور أبو غنيمة نشاطات أدبية وصحفية ، تجلت من خلال نشره لمئات المقالات والخواطر والحكايات في الصحافة الدمشقية ، لاسيما في صحيفة (الأيام)

المحتجبة ، لصاحبها الأستاذ نصوح بابيل .

ويمتاز أيضاً بخفة دمه ..وضحكته الفريدة من نوعها والتي ينهز لها بكليته كلما أطلقها بعد سماعه نكتة حلوة ، وعرف عنه تقبله للمقالب مهما كانت ساخنة أو باردة ... وهذا ما يفسر لنا استضافته مع أشهر ظرفاء دمشق في القرن العشرين .

حقيقة الزباليط :

... لقد دخنت كل أنواع التبغ ـ ما عدا الحشيش طبعاً ـ ولكني صديق (للشيشة) منذ أكثر من ثلاثين سنة ، ولا يوجد (تنبكجي) واحد في دمشق لم يربطه حبل الشيشة بصداقتي . فأنا استلطفها وأرى فيها ظرفاً وشعراً لا أراه في السيجارة ، ولذا فأنا معجب بها وبما يقال فيها ، وأحفظ أكثره ، من ذلك قول الشاعر العراقي السيد محمد سعيد الحبوبي :

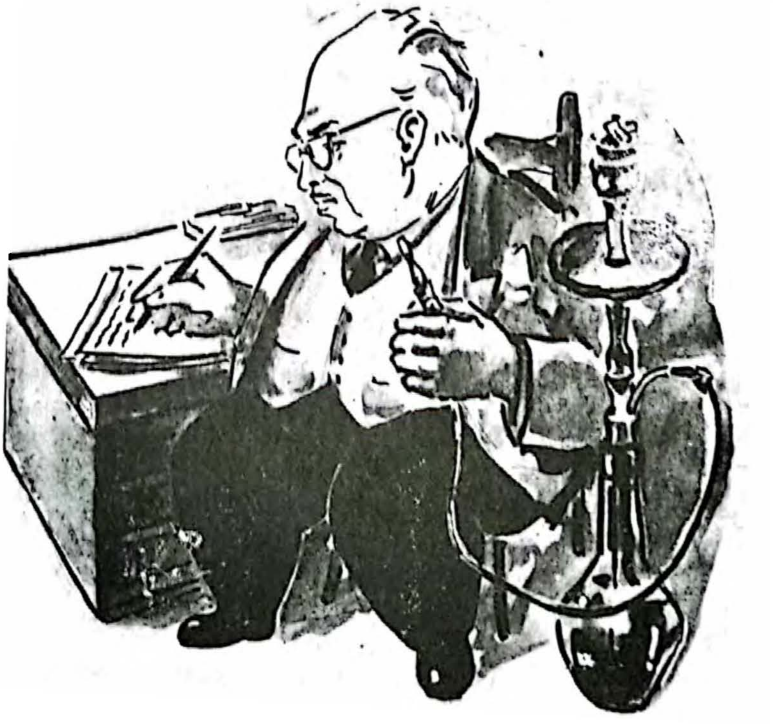

صبحي أبو غنيمة في صورة ضاحكة

ونارجيليـة تهدى بكـــف رشا | حلو الدلال رشيق القـد ميـاس
ظـلت تعربـد في كفيـه شاربـة | من ريقه العذب لا من نهلة الكاس
جـائت تجر فويـق الماء مئزرهـا | وفـوق مفرقهـا لألاء مقبـاس
أعـديتها داء برحـائي معـاكسة | فالدمع في قلبها والنار في الراس[٢٠]

ولم يقهرني إلا أعرابي بقوله : « شرّية التنباك صاروا زباليط والكيف للّي يشربون السيجارة ! » . ومع أني لا أزال أبحث عن حقيقة (الزباليط) ، ومع أن (الزبلطة) كما يفهم بالبداهة لا تتفق مع الوجاهة بكثير أو قليل ، فكل ذلك لم يوقع بين الشيشة وبيني[٢١] !

تعقيب :

يقول الأديب الكبير الدكتور عبد السلام العجيلي : كتب الدكتور أبو غنيمة ، وهو شارب التنباك المشهور ، يتساءل عن معنى (زباليط) الواردة في قول الأعرابي : « شريبة التنباك صاروا زباليط .. » والذي سمعناه عن أشياخنا أن البيت ورد هكذا : « شريبة التنباك صاروا سمروت ... والكيف للي يشربون السيكارة » . والسمروت هو الإنسان الهزيل المتهدم . وقد اختلف الفقهاء في منشأ هذه الكلمة وأشهر الأقوال فيها أنها آتية من « سمل روت » ، السمل واحد الأسمال هو الخَلِق البالي من الثياب ، والروت هو خرقة توضع تحت خشبة يد الرحى لتمنع اهتزازها وتكون قبل ذلك قد دقت حتى أصبحت كالعجينة في لينها . وهكذا فشريبة التنباك ، على ذمة الأعرابي ، صاروا كلهم سمروت ! والمعذرة من الصديق الكبير الدكتور أبو غنيمة[٢٢] .

---

(٢٠) ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي ، ص ٣٠٨ ، بيروت ١٩١٣ .
(٢١) مجلة التبغ ، العدد (٤) ، أيار (مايو) ١٩٥٩ .
(٢٢) مجلة التبغ ، العدد (٦) نيسان (أبريل) ١٩٦٠ .

□ **حسني تللو :**

أما حسني تللو فهو ظريف دمشق رقم (٢) ، وكان يزن حوالي (١١٥) كغ . وقد عرف عنه إشارات يديه أثناء الحديث ، وكثرة كلامه الظريف ، ومحبته الزائدة للطعام – أبعده الله عن بيتنا .

وقد قال السيد تللو لأحد أساتذة تعليم الرقص بدمشق ، أنه مستعد أن يتعلم إحدى الرقصات الشعبية ، ويؤديها مع بعض الفتيات الحسان في حفلة عامة ، شريطة أن يكون ريع الحفلة لإحدى الجمعيات الخيرية[٢٣] .

□ **أحمد الصافي النجفي :**

كان لقائي الأول معه منذ (٢٥) سنة ، في مقهى (الهافانا) ، عندما عرضت عليه قصيدة من نظمي لمعرفة رأيه الصريح بها ! وبعد أن قرأها بإمعان قال :

– هذا ليس بشعر ...!! عليك أن تحفظ عشرة آلاف بيت من عيون الشعر العربي ... ثم تنساها ... وبعد ذلك تنظم الشعر ... فتصبح شاعراً يشار له بالبنان .

وتشاغل عني بإطعام إحدى قطط المقهى لحماً مشوياً كان يخفيه في جيبه . وتجدر الإشارة إلى أنني لم أتمكن من حفظ الأبيات الشعرية التي حددها الأستاذ الصافي ، واكتفيت بحفظ القصائد المقررة علينا في الكتب المدرسية والمراجع الجامعية ...

وتمر السنوات مرور السحاب الصيفي ... وألتقي مع الشاعر الكبير في العاصمة اللبنانية .. وبتحديد أدق في صيف عام ١٩٧٦ ، فكانت هذه الأسئلة العفوية[٢٤] :

– أيها الشاعر الفيلسوف أما زلت على موقفك القديم من المرأة ؟

---

(٢٣) الأخبار القاهرية ، العدد (٢٤٢٩) ، ٢٠ نيسان (أبريل) ١٩٦٠ .

(٢٤) يحدثونك عن أنفسهم ، ج ١ ، هاني الخيّر .

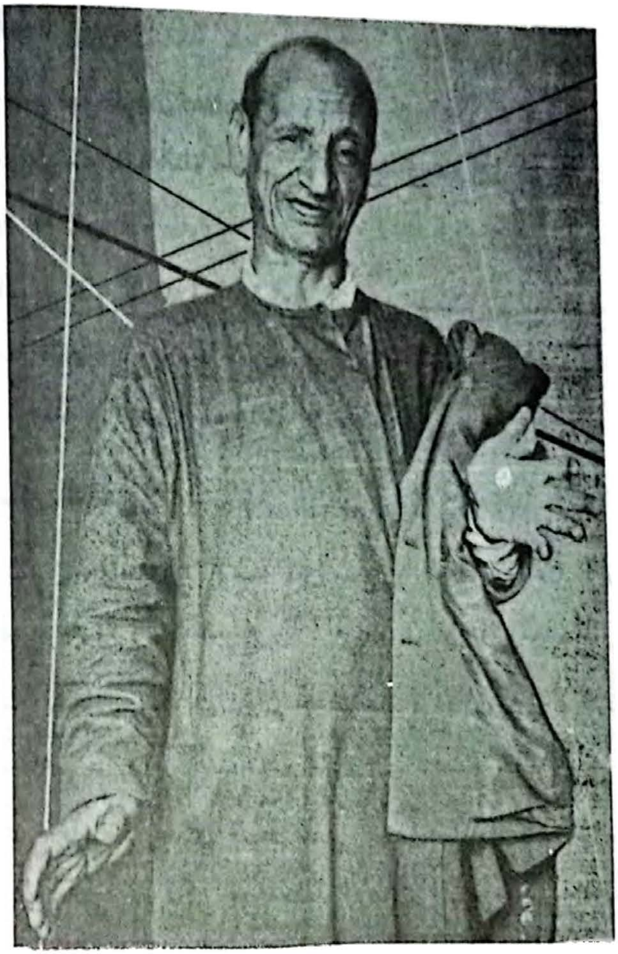

□ المرأة الحسناء والقلم ضدان لا يجتمعان كذلك فإن المرأة تأخذ نصف عقل الرجل ويأخذ الأطفال النصف الثاني !! لذلك لم أتزوج حفاظاً على عقلي من التشويش .

ـ ماذا عن ديوانك حصاد السجن ؟

□ في عام ١٩٤١ سجنت مدة (٤٣) يوماً في إدارة الأمن العام الإفرنسية في بيروت ... فكتبت قصائد هذا الديوان .

ـ التهمة التي وجهت إليك ؟

☐ التعاطف مع النازية ... وهذه تهمة غير صحيحة .. فأنا أكره النازية التي تتصف بالوحشية .. والاستعلاء .. وحبها لسفك الدماء .

ـ لكنك مدحت يونس بحري .. في بيت شعري ... وأنت تعلم أن يونس بحري ، كان يقدم برنامجاً من إذاعة برلين أيام هتلر اسمه : (هنا برلين حيّ العرب) !؟

☐ فعلت ذلك لأنه كان ينعش آمال القوميين العرب بالاستقلال ثم اكتشفت أنه كان مضللاً كبيراً ... وكان محتالاً كبيراً ... وللإنصاف أعترف أنه كان واحداً من الظرفاء العرب ، بالرغم من تورطه المستمر في الدسائس والمؤامرات الرهيبة .

ـ ماذا تقول عن شعرنا الحديث ؟

☐ أنجم مفروطة بحاجة لسلك !!

ـ الشاعر الذي تحبه ؟

☐ إيليا أبو ماضي .

يونس بحري أعجب شخصية
خرجت من العراق ! كان يونس
بحري يشتغل بالصحافة ، فانطلق
في رحلات طويلة أطلق على نفسه
خلالها اسم « السائح العراقي »
وفي الحرب الاخيرة ذهب الى برلين
حيث صار يذيع بالراديو ولما
انهزمت المانيا ذهب الى باريس حيث
أصدر جريدة « العرب » . وكان
يهاجم الملك عبد الله ويسميه
« الحاخام عبد الله » ولكنه على
أثر متاعب أحاطت به في باريس ،
عاد الى الشرق ، واصطلح مع
عبد الله ، ومع نوري السعيد .
فاستخدمه الداعية العراقي في
الدعاية ضد الجمهورية العربية
المتحدة . وكان يونس بحري في
بيروت فخطر له أن يسافر الى
بغداد ، لمقابلة نوري السعيد وغيره
من أتباع العهد البائد ، فسافر
قبل قيام الثورة بيوم واحد !

نقلاً عن مجلة المصور[٢٥]

(٢٥) المصور ، العدد (١٧٦٦) ١٥ آب (أغسطس) ١٩٥٨ .

ـ ما هو المثل الأعلى العربي ؟

□ الموت في سبيل الوطن . في سبيل القضية . في سبيل المبدأ .

ـ موقفك من الأدب الرمزي ؟

□ أنا أحارب الأدب الرمزي القائم على التعقيد اللفظي ، الذي يضيع وقت القراء ويجعلهم يتخبطون في دياجير الأوهام والتكهنات والحدس والتخمين .

يحكى أن الصوفي الشهير (ابن عربي) وقف يوماً أمام الجماهير في أحد جوامع دمشق المحروسة وصاح قائلاً :

ـ أيها الناس إن معبودكم تحت قدمي !!!

فما كان من الجمهور الذي لم يفهم مغزى قوله ، وحمل كلامه على الكفر والزندقة ، إلا أن هجموا عليه وقطعوه إرباً إرباً !! وبعد مرور مئات السنين سمع أحد الملوك العارفين بالله هذه الحكاية فقال للناس :

احفروا حيث وضع (ابن عربي) قدمه ، فحفروا ووجدوا تحته ذهباً مكنوزاً ، فكان ذلك تفسيراً لكلام (ابن عربي) المبهم الذي أودى بحياته الغالية .

وهنا أقول ـ والكلام ما يزال للأستاذ الصافي ـ :

لو صحت هذه الحكاية .. ما كان ضر (ابن عربي) لو أوضح مراده للجمهور وقال لهم : إن الذهب الذي اتخذتموه من دون الله هو مكنوز تحت قدمي . فيكون بذلك حفظ حياته ونفع غيره باكتشاف الذهب وإنفاقه !؟ ولكن ما العمل وهو مرض الإبهام والطلاسم الذي ينتهي على الأغلب بصاحبه وحده أو مع غيره إلى الموت .

ـ لسان حالك في هذه الأيام ؟

أنا سيّارة تعبتْ وشاخت — تسير مراحلاً متقطعاتِ
لها في كل مرحلة (كراج) — يشد ضلوعها المسترخيات ...
فلو أمّنت مستشفى لسيري — ملأت الدرب بالمستشفيات !!

الصافي في دمشق :

أحمد الصافي النجفي

نزل أحمد الصافي النجفي دمشق سنة ١٩٣٠ ، فقيراً وظل يسكنها مدة (٤٠) سنة ، أي ما يقارب نصف عمره .. وغادرها فقيراً إلى بيروت ، وقد أثرت دمشق على شاعرية الصافي ، واكتمال فلسفته ، ونضج شخصيته .

وله في هذه المدينة الخالدة مئات المواقف والحكايات الضاحكة ، وهذا ما رشحه لأن يكون واحداً من ظرفاء دمشق الكبار !

مشاعرالمرحوم :

ذات يوم ، مرت (جنازة) أمام المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه (الهافانا) ، وعلق الصافي بمرارة وسخرية : انظروا كم من المنافقين يواكبون (المرحوم) ، لعله

الآن يلعنهم في تابوته[٢٦] !؟

الشعراء والسعادة الزوجية :

ومن سخريته اللاذعة أنه قال للأستاذ عبد الله الشيتي : لو أن الشعراء سعداء حقاً في حياتهم الزوجية ، لرأيتهم مثلاً يهدون دواوين أشعارهم لزوجاتهم ، لا ... لحبيباتهم !

قلت : ولكن بعضهم قد فعل وأهدى أعماله الشعرية لزوجته . فأجاب مبتسماً : تلك تغطية للحقيقة ، حقيقة الحبيبة[٢٧] !؟

الشاعر السارق :

ومن نوادره أن أحد أدعياء الشعر والأدب جاءه يوماً يطلب رأيه في قصيدة قال إنه نظمها ويريد من الصافي نقداً أو تقريظاً لها . وما أن قرأ النجفي أول بيت حتى أدرك أن القصيدة ملطوشة من شعر قديم له دون أن يفطن (الشويعر) السارق لذلك . فما كان من الصافي إلّا أن قال له ساخراً ، لا تنشرها يا صاح لأنها ضعيفة .. فسأله (الشويعر) : ولكن لماذا هي ضعيفة يا سيدي ؟ أجاب النجفي ساخراً مرحاً : لأنني أنا الذي نظمتها يا أخ ... وأنت بذلت جهداً طيباً ملموساً في تشويهها[٢٨] .

المطرب المزعج :

سألت الشاعر المرحوم الصافي ، وقد راح يشتم صوت مطرب أزعجه فقام إلى (راديو) المقهى وأسكته بعصبية ظاهرة ! سألته : لماذا لا تعطي بعض شعرك لمطربين ومطربات يغنونه ؟ فقال :

---

(٢٦) أحمد الصافي النجفي — رحلة العمر ، عبد الله الشيتي ، ص ٤٢ ، الكويت

(٢٧) المصدر السابق ، ص ٤٢ .

(٢٨) المصدر السابق ، ص ٨٣ .

.. أتريد مني أن أسلم شعري لأمثال هذه الأصوات التي تشبه صوت الشاحنات ؟

قلت : والأصوات الجميلة ؟ أجاب يظل صوت الشعر مقروءاً أجمل .. وأن بين قصيدة وأخرى ، بحسب ما تكون عليه حالته النفسية لقول الشعر ، ومدى التحامه أو تحسسه للموضوع المراد طرقه أو التعبير عنه[٢٩] .

الحل هو الطلاق :

زاره مذيع .. يعرض عليه يوماً أن يحل مشكلة مستعصية لإحدى المستمعات ، وخلاصة مشكلتها أنها لا تطيق العيش مع زوجها ولا تعرف ما هو الحل لأنه يهينها ويضربها وحاول الصافي أن يعتذر بأنه لا يفهم في هذه المسائل والمشاكل ! إلّا أن المذيع أصر عليه أن يدلي برأيه ، فقال في جوابه :

ـ لستُ أملك ما أقول في هذه المشكلة المؤثرة ، سوى أن على السائلة أن تخلص من زوجها ، وتتزوجني ...

ويشنع على نفسه فيقول معقباً : لقد تعمدت هذه الإجابة لأنها نجحت في جعل الزوجة تتراضى مع زوجها ، حين علمت أن البديل يمكن أن يكون أنا ...

دار الحب للملايين :

واكتشف يوماً أن واحدة من المتأدبات في عاصمة عربية كانت تعبث وتلهو بمشاعره ، وترسل إليه نسخة مكررة من رسائل إعجاب وحب وتوزعها على غيره من الأدباء والشعراء (نسخة طبق الأصل) فذهب إلى دائرة البرق والبريد ، وبعث إليها بهذه البرقية الساخرة يقتص من عبثها :

« يا سيدتي ، في بيروت دار العلم للملايين ، وفي قلبك دار الحب للملايين » !!

(٢٩) المصدر السابق ، ص ٨٣ و ٨٤ .

صديق الحيوانات :

ومعروف أن النجفي كان شديد الولع والشغف بمصاحبة الحيوانات الصغيرة الأليفة ، وله شعر كثير فيها ودفاع عنها ... ومحاورات شائقة مع النمل والذباب والبق والقمل ، والقطط ، والكلاب ...

أما الحشرات فكانت بمثابة الضيوف الأعزاء ... الذين يشاركونه غرفته التي يقطنها في دمشق . يقول :

مـن الحيـوان لم أشك إستيـاءً ولم أر في الضواري لي خصوما
هـو الإنسان « حيـوان » ولما تـرقى صار حيوانـاً لئيمـاً

ضارب العود :

كان من جلسائه .. بل من أصفيائه الدكتور عبد الوهاب حومد ، والكاتب الناقد رئيف خوري ، وأحمد الجندي (أبو حيان) ، وفؤاد الشايب ، ونسيب الاختيار ، وصلاح المحايري ، وعمر أبو ريشة ، وزهير مارديني ، وعبد الرحمن الخيّر .

وكان للأستاذ رئيف خوري لقاءاتٌ أخر مع الأستاذ الصافي ظهراً حيناً ومساءً أحياناً في مطعم صغير يقع قرب البرلمان يدعى مطعم السنيور لصاحبه الحاج عبد الغني ، وكان تناوله الطعام فيه من قبيل التشجيع والمساعدة لصاحبه الذي قد بلغ من الفقر والعمر عِتياً . وفي إحدى الأماسي طلب الصافي من صاحب المطعم أن يضرب له على العود ، فأجابه بأنه مقطوع الوتر ، ثم ألحَّ عليه فعزف وغنى ، وبعد أن انتهى ارتجل الأستاذ الصافي هذه الأبيات[٣٠] :

ومغـنٍ بالـغٍ سنَّ الكبـر ترعَشُ الرجلانِ منه إن خطر

(٣٠) ذكريات وآراء عن الأستاذ أحمد الصافي النجفي ، د . فيصل دبدوب ، فصلة من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج ع س ٥٣ ، دمشق ١٩٧٩ .

غناً

قلتُ أسمعنا على العـود غنّـي   قـال إنّ العـوذ مقطوع الوتـر
قـلتُ غـنّ فكلانــا مثلــه   قطعت أوتارنـا كـفُّ القـدر
فغـــدا يُــنشد لي أغنيـــةً   قطعت في عالم اللّحن عُمُـر

دعابة :

رأينــا أحمد الجنــدي يعلـــو   حصانــاً كان أشبـه بالأتــان
فلــم نــرَ قبـل أحمد إذ عــلاه   حمارا راكبـا فـوق الحصان(٣١)

الشَيْبْ

لاحمد الصافي النجفي

جلست للحلاق يو
مأ جلسة المؤدب .
كأنني تلميذه
وهو مدير المكتب .
اطرقت بالرأس لـه
اطراق رأس المذنب .
فقص مني الشعر
قص الحاذق المجرب .
اذا بشعر اشيب
كأنه شعر ابي .
ظللت في الشعر
اجيل نظرة المستغرب .
من اين جاء الشيب لي
والقلب ما زال صبي،
وليس مـا بيني وبين
شيبي مـن نسب .
عدلت عن عد السنين
خوف كشف الحجب .
ولم اعاشر غير شبان
واهـل اللعب
كيلا يجيء الشيب لي
مهدداً بالنوب .
شيبي بموتي منبئ
كأنما الشيب نبي .
كفرت بالشيب فذ
هب الشباب مذهبي .
مبدّل صفوى قذى
وراحتي بالتعب .
وكلما احسست ضعفاً
للمشيب د . ب .
اقول ، ذا من تعب
اصابني او وصب .
اغالط العقل بأحكامي
كأنـني غبي .
مخافة الشيب مـن
المرآة لم اقترب .
حتى اتى الحلاق فاضحاً
لرأسي الاشيب .
يا ليته بـدل شعر
الشيب لي . شعر صبي .

---

(٣١) أشعة ملونة ، أحمد الصافي النجفي ، ص ١٠٠ ، ط ٣ ، مكتبة المعارف — بيروت .

الإنسان مسيَّر لا مخيَّر :

لئن اتفقت أنت والصافي على موعد فيه تلتقيان في مكان ما بدمشق ، فقد يأخذك العجب حينما تقرأ في صحيفة أو مجلة إن الصافي في بيروت أو حلب أو حماه ، في نفس التاريخ المتفق عليه ، وأنه ألقى قصيدة في حفل ما أقيم هناك ، ولكن سيزول عنك العجب فيما لو علمت بأن الأستاذ الصافي كان يؤمن بأن الإنسان مسيَّر لا مخيَّر في كل الأمور أو في أمر المواعيد على أقل تقدير ، ولا ندري لعلَّ إيمانه هذا كان لتبرير شطحاته في المواعيد(٣٢) .

□ **محمد الحريري :**

محمد الحريري

---

(٣٢) ذكريات وآراء عن الأستاذ الصافي ...

شاهدته أول مرة في عام ١٩٦٦ ، عندما كنت طالباً في ثانوية جودة الهاشمي ...

وقد استرعى انتباهي - للوهلة الأولى - نظراً لضخامة جسمه .. ولمرحه الدائم ... وخفة دمه ... ولتلك الإبتسامة المشرقة الذكية التي لا تفارق وجهه الطافح بالخير ... والبراءة .. والطفولة ...

وبعد أشهر ... علمت أنه بالإضافة إلى وظيفته كأستاذ للغة العربية في ثانويات دمشق الرسمية والخاصة ، يمتهن نظم الشعر الكلاسيكي ، حدث ذلك عندما شارك بإلقاء قصيدة شعرية ضمن الاحتفال الذي أقامته إدارة المدرسة بمناسبة ذكرى ثورة الثامن من آذار ، وألقى الشاعر في هذا الحفل قصيدته الشهيرة التي حملت اسم (السكين) ، ومنها نختار هذه الأبيات[٣٣] :

أحد من الغدر الخفي وأقطع وأعدى من الكيد الفري وأسرع

مؤلف الكتاب عندما كان طالباً في ثانوية جودة الهاشمي وقد ظهر إلى يمينه جان سعيد وإلى يساره أمير محفوظ (١٩٦٧)

---

(٣٣) ديوان الحريري ، إعداد وتقديم شوقي بغدادي ، ص ٤٥ ، منشورات إتحاد الكتّاب العرب بدمشق .

ورقّت على الزنّار خصراً وأتلعت ... لها عنق واقتّر ثغر مرصع
فمأكلها لحم ، ومشربها دم ... نحن إلى هذين طعماً وتنزع
وتزهو إذا طاحت بهامة ظالم ... فتعلى بها أعراس ذبح وترفع
وإن أدمت المظلوم أظلم حدها ... وأنت محزّاً وانثنت تتوجع
ومأساتها الكبرى بدت حينما هوت ... على الخلفاء الراشدين تفجّع
على عمر هلّت فلما ترشّفت ... تفوح طهرا حدها المتضوّع
ولما استذاقت من عليّ تزهدت ... وراحت أمام الله تجثو وتركع

ومن سوء طالعي ... أن الأستاذ محمد الحريري لم يكن يدرس صفنا مادة اللغة العربية ... وتشاء المصادفة السعيدة أن انتقل في نهاية عام ١٩٦٩ إلى مدرسة خاصة اسمها مدرسة الشرق ، وكنا نطلق عليها اسم (لوكندة الشرق) وكان صاحبها الجنرال بشارة ، الذي كان يطاردنا دون هوادة عندما نتأخر بدفع تتمة القسط المدرسي السنوي ... والذي نكون عادة قد أخذناه من أهلنا ، ثم صرفناه دون وجه حق في (مقهى أمية) !

في هذه المدرسة الغريبة من نوعها ... كان لقائي الثاني بالأستاذ محمد الحريري ، الذي كان يروق له أن نطلق عليه اسم محمد بك ، وأصبحت واحداً من طلابه ...

وكان درسه في غاية الظرف والكياسة ... حيث كان يسمح لنا - رحمه الله - نحن طلّاب البكالوريا بالخروج من درسه متى نشاء ! وكذلك التدخين أثناء إلقاء الدرس إذا رغبنا ... وأتذكر أن صاحب المدرسة الجنرال بشارة ضبطني أدخن وأنا ضمن الصف .. فاضطربت ورميت بالسيكارة داخل درج المقعد .. فصرخ قائلاً : ضع السيكارة في فمك ... هل تريد أن تحرق المقعد !

وكان الأستاذ الحريري يجلس على المقعد الأمامي ووجهه أمامنا ... ويبدأ بشرح الدرس ... وكان من المتعارف عليه أن الأستاذ الحريري كان يلتهم بيضة مسلوقة قبل أن يبدأ الدرس ، وهي إفطاره الصباحي ....

.أتذكر أنني سألته في إحدى المرات عن اسم أجمل امرأة في دمشق حسب وجهة نظره ومزاجه فأفادني مشكوراً :

- إنها السيدة ملك سكر .. ونطق الاسم بعد أن وضع يده على قلبه ! وفي مناسبة ثانية .. سألته عن شاعره المفضل .. وأجمل قصيدة تروق له فقال : انه أحمد شوقي - أمير الشعراء - وأعظم قصيدة له هي قصيدة (وصف ليلة راقصة ملكية) أقيمت في قصر عابدين ، طبعاً قبل ثورة يوليو ، ومطلعها[٣٤] :

حـــفّ كأسَهـــا الحَبَبُ فهـــــــي فضة ذهب
أو دوائـــــــــر دُرَرٌ مائـــــجٌ بها لـــــهَبُ
يـا نديـمُ ، خِـفَّ بـهـا لا كبـــابك الطـــرب
لا تقـــلْ : عواقبُهـــا فالعــــــواقب الأدب

وبعد أن حصلت على شهادة (البكالوريا) - القسم الأدبي ، انتسبت إلى قسم اللغة العربية بجامعة دمشق ، وخلال دراستي عملت بالمكتب الصحفي في وزارة سد الفرات ، وكان السد العظيم ما يزال قيد الإنجاز ...

وكانت لي آنذاك - وما أزال - اهتمامات أدبية وثقافية ، فاقترحت على السيد المهندس منير ونوس ، وزير سد الفرات ، إقامة أمسية شعرية في مدينة سد الفرات الطبقة (الثورة - حالياً) ، يشارك في إحيائها كوكبة من الشعراء السوريين ، فوافق بحماس على هذه الفكرة الثقافية ، التي تهدف إلى تعريف الشعراء على هذا الإنجاز الضخم المشاد في قلب الصحراء ، وبعد ذلك يستلهموا ما تجود به قرائحهم من هذه التجربة الجديدة ...

---

(٣٤) انظر الشوقيات ، أحمد شوقي ، المجلد الأول ، ص ٩ ، ط دار العودة - بيروت .

وبالفعل اتصلت بالأستاذ الحريري وعرضت عليه المساهمة بهذه التظاهرة الثقافية ، فوافق على الاشتراك ، والسفر إلى (الطبقة) ... وكذلك وجهت الدعوة إلى كل من الأساتذة :

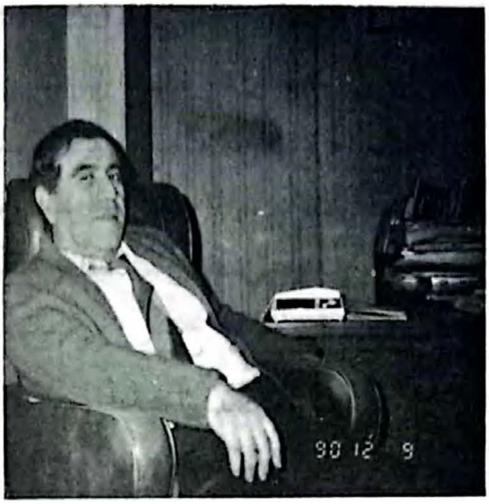

المهندس منير ونوس

- محمد عمران .
- علي الجندي .
- سهيل إبراهيم .
- ممدوح عدوان .
- فائز خضور .
- نزيه أبو عفش .

فوافقوا على تلبية الدعوة ... وهناك في مدينة سد الفرات (الطبقة) ... وفي مكان أدق (بصالة سينما الكندي) ، ألقى الأستاذ محمد الحريري باقة من قصائده ، أذكر منها قصيدته الضاحكة التي حملت اسم : (في السينما) وكان ذلك بتاريخ ١٩٧٣/١/٦ ، ومنها نختار هذه الأبيات الرائعة[٣٥] :

وقفتْ بشباك التذاكر　　تُلقي بأصبعها الأوامر
فتنهد الشباكُ واسترخى　　على خمش الأظافر
بيضاء أوشك خدّها　　بلهيبه يغزو المجامر
لولا احمرار الكُرْت　　لم تظهر أصابعها لناظر
درجت فكرٌ وراءها　　حبلٌ من البشر المغامر
أنا أول الحبل وفي　　الوسط انعقدْتُ وفي الأواخر

---

(٣٥) ديوان الحريري ، ص ٣٣٩ .

إن التقمص مذهبي   *إما تزاحمت المشاعر*
أنساب في طي النفوس   *وفي تعاريج الضمائر*
حتى أحس بشهقة   *الرغبات من خلف السرائر*
والناس كل قلوبهم   *مولودة من قلب شاعر*

ونال الأستاذ الحريري من تصفيق الجمهور واستحسناه ورضاه ، ما لم ينله كل الشعراء ، والسبب ، أن الحريري خطف الأضواء بقصائده الغزلية المحببة إلى النفوس ، مما دفع بأحد الشعراء المشاركين ... إلى توجيه كلمة جارحة إلى شخص الحريري ، وهو يلقي الشعر ، فغضب الأستاذ وحاول النزول من على المنصة ، لكن الحضور وعريف الحفل (أنا) منعوه من الإنسحاب .

وحين عدنا إلى دمشق ... كتبتُ خاطرة حول هذه الحادثة ، نشرتها في جريدة الثورة (في أحد أيام الشهر الأول من عام ١٩٧٣) بموافقة من الأستاذ أحمد اسكندر رحمه الله وكان آنذاك مديراً عاماً لجريدة الثورة ، وكانت الخاطرة سبباً ثالثاً في توطيد صداقتي مع الأستاذ الحريري ، حيث كنا نلتقي في (مقهى الشام) الواقع في شارع (٢٩) أيار ، وأحياناً في حديقة السبكي القريبة من منزله ، ونتبادل أطراف الحديث في شؤون ثقافية ، وقضايا لغوية ، وحكايات أدبية ... وطموحات حياتية ومعاشية ...

وفي العام الأخير من حياته ... وجدت أن الأستاذ الحريري ، بدأ يحاول تخفيف وزنه ، دون استشارة طبيب ، وحين سألته عن السر والحكمة في ذلك !؟ أعلمني أنه يريد أن يتزوج ... والزوجة القادمة اشترطت عليه تخفيف وزنه !! ويبدو أن « الريجيم » القاسي كان سبب وفاته ظهر يوم الأربعاء ٢٧ آب من عام ١٩٨٠ في مستشفى حرستا بدمشق ... وطويت صفحة أعماله وبقي شعره الأنيق ماثلاً في الذاكرة قراءة .. واستظهاراً .. وحفظاً .

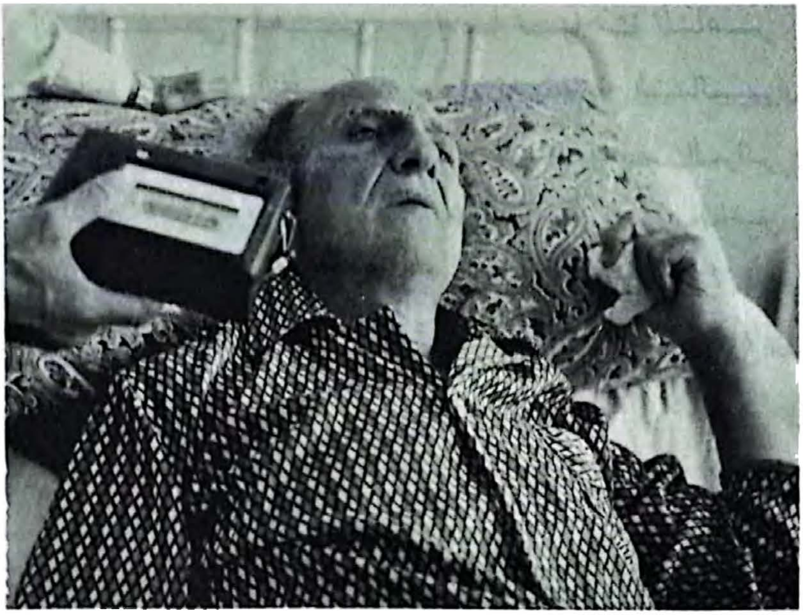

محمد الحريري قبل وفاته بـ ٤٨ ساعة

محمد الحريري .. في ذاكرة الأديب الكبير حسيب كيالي :

كان لنا صديق غالٍ ، شاعر نسيج وحده ، جسيم ضخم ، على وجه مثل وجوه أطفال « نستله » وكان وزنه يتراوح بين مئة وخمسة عشر كيلو غراماً ومئة وثلاثين .

ذات صباح صادفناه يفطر في محل (مهنا) للحلويات بساحة الشهداء (المرجة) ، مامونية بالسمن العربي والقشطة الخالصة المستخلصة من حليب الغنم الأصلي . قلنا له ونحن مقبلون عليه : « إن شاء الله صحة !) قال : « دعوة مستجابة بإذن الله ، كما ترون ! تفضلوا » تفضلنا . قال قائلنا متطاباً : « لو أنك يا أبا جاسم اقتصرت على المامونية وعففت عن القشطة ، أو فعلت العكس لما في السمن العربي وقشطة الغنم من ثقل متمثل في زيادة الكولسترول فيهما » .

قال أبو جاسم وهو يتضاحك فتهتز كرشه الرابية : « حد علمي أنك عاقل ولا تنطلي عليك برابيك الأطباء » وازداد ضحكاً واستمر يقول : « أنا لا أرى حواة ، مشعوذين ، لاعبي ثلاث الورقات أو ثلاثة الكشاتبين ... أكثر ملعنة من الأطباء

خصوصاً الممارسين العامّين . هل تعلمون أن أحدهم حاضَرَ في التلفاز مرة فقرر ، بكثير من الجلال والخطر والمهابة كأنه (هارفي) لما أكتشف جرثوم (الملاريا) بعد أن شرح مئة ألف بعوضة ... قرر أن كيلو التمر ، حتى ولو كان حشفاً وسوء كيلة ، يعادل ثلاثة كيلوات من سمك الهامور ! لو أنه كان يحاضر في قاعة أنا من شهودها لقمت أسأله : سيادة الدكتور ألا تتفضل بالتأكد من أرقامك .. أخاف ألا تكون دقيقاً جداً لأني سمعت حكيماً آخر يقول : إن كيلو التمر الخالص يعادل ثلاثة كيلوات إلّا واحداً وعشرين غراماً من سمك سلطان إبراهيم ! » .

ضحكنا طويلاً إلّا هو . كان يبدو عليه مشغول الفكر بأمر . قال بعد أن هدأ ضحكنا : « أنا تشغلني مسألة أهم . قولوا لي كم غراماً في رأيكم وزن محتويات هذا الطبق الذي أمامي ؟ » قلنا : « نحو نصف كيلو ! » قال : « عليكم نور ! ولكن كيف يحدث أني آكل ما وزنه نصف كيلو فيزيد وزني كيلو ونصف الكيلو ! ! » .

من المحزن أن هذا الإنسان الخلي ، المحب للحياة ، الساخر من الطب ، المستهزىء بالأطباء ، استطاع هؤلاء ــ الذين يسميهم حواة ــ أن يتسللوا إلى نفسه فيوهموه أنه في خطر من زيادة الوزن ومحبة المامونية بالسمن العربي والقشطة الطازجة من حليب الغنم ، وأنه إذا لم ينقصْ وزنَه في الأقل خمسين كيلو غراماً فعزرائيل ناطره قدّام الميزان ... قالوا « كلمتان على الأذن سحر » . أنقص وزنه كما وصفوا فكانت الطامة الكبرى . ذوى أبو جاسم ، نصل لون وجهه النضير حتى ضرب إلى اللون الزيتوني الكامد .

بدأت أوجاع في الظهر تتناهشه . ظهر أن وصفاتهم ضربت الكلى . أدخل إلى غرفة العناية المشددة . لم ينتظره عزرائيل طويلاً . قضى وهو في شرخ الكهولة . وا أسفاه !

كان كل شيء في محمد الحريري ظريفاً ، آسراً ، ينشر المسرة مجرد رؤيته في مقهى الشام ، على الرصيف وهو يدخن الأركيلة ونحن من حوله نتحرش به ، نحاول

إثارته فلا يتحرك ، يكفي بالإبتسام الغفور ، حتى إذا ما زودناها حبتين قال بصوته الجهير العميق : « الآن ستلقون جزاءكم » ويمدّ يده إلى جيبه ويخرج أوراقاً وهو يقول : « جزاؤكم شديد سأسمعكم رضيتم أم لم ترضوا ، آخر ما تفتق عنه نبوغي الشعري الباهر ! » . ويبدأ الإنشاد . وله عنده طقوس : يقرأ البيت أو البيتين ويتوقف . ينقل عينيه في وجوهنا واحداً بعد واحد ، يعبس ، يحمّل صوته معنى التأنيب وهو يقول : « حلو ! أليس حلو ؟ ألست شاعر الشام بلا منازع ؟ سلمت ملافظك الحلوة يا أبا جاسم يا راعي الحصان . ولك النكته أن أي شاعر قادر على أن يصف لغماً ينفجر تحت دبابة عدوة ... ولكن عمكم أبا جاسم وحده القادر على أن يؤنِّس ... يا شوقي البغدادي ... ماذا تقولون أنتم في لغتكم المتحادثة ؟ » فيردّ عليه شوقي الذي لا يقلّ عنه روعة وظرفاً : « نقول : يؤنسن » فيشقرق أبو جاسم منتصراً ويقول : « هذه هي الكلمة ، على النغمة ، أحسنت . أقول إن عمك أبا جاسم هو الذي يؤنسن اللغم[1]، يجعله عربي الفولاذ والفتيل والديناميت يهيم طموحاً إلى الموت إرباً إرباً في سبيل أن يقتل طاقم دبابة عدوة ! » ويعم الجذل ، يتسرب إلى القلوب من عدة ينابيع من الوجه الأضحيان الصبوح كوجوه الأطفال ، من الصوت العميق المستتر المزهو ، من القصيدة البارعة ومن شرحها جميعاً فترتفع الأصوات رائع ... أعد يا أبا جاسم ... والله شي بديع ... وهو ، رهروها ، مترهدنا ، طرباً مثل عرق الخس المقطوف للتوّ يردد :

- أي هاتوا من هذه أيضاً وأيضاً . امدحوني ! امدحوني . أنا والله مثل السمك في المدح . جئتي ، آمنت بالله ، تحب المديح . امدحوا امدحوا ...!

رحمك الله يا أبا جاسم فقد كنت ، والله تستحق المديح ، وأكثر[36]

---

(٣٦) تشرين ، العدد (٤٧٢٨) ، ١٩٩٠/٣/٢٩ ، بقلم الأستاذ حسيب كيالي .

(١) يريد المفهوم من طريق التشخيص .

محمد الحريري في ذاكرة الأستاذ شوقي بغدادي :

لم ينشُر محمد الحريري - رحمه الله - وأدخله فسيح جنانه دائماً ، وأسكنه إلى جوار الحوريات في جنته كما كان يشتهي أن يعيش دائماً ... لم ينشر أية مجموعة شعرية له في حياته . لقد ظل مبعثراً موزّعاً بين المهرجانات الخطابية والأمسيات الشعرية ، والصحف والمجلات ، وحين كان أحدنا يسأله : لِمَ لا تجمع شعرك يا محمد في ديوان مطبوع ؟ كان يجيب أحياناً وهو يتصنع الجدّ : سأصنع ذلك حتماً ... لا ينقصني إلا « تبييض » بعض القصائد ثم تكون المجموعة جاهزة ! ولكنني كنت أعرف أنه كان ساخراً إذْ لا شيء أثقل على نفسه - كما كان يُسرّ لي - من نسخ القصيدة مرة أخرى بشكل منسق واضح جاهز للمطبعة . كان محمد يحفظ شعره على الأغلب وخاصة الجديد منه ، ولهذا السبب كان يكتفي بحمل المسوّدة ، أو ورقة المبيضة وهي صغيرة قد لا يحسن قراءتها سواه عند إنشاده في الأمسيات والمهرجانات ، ولولا أن بعض هذه القصائد نُشر في الصحف إذن لما بقي لنا منه إلّا هذه المسوّدات والقصاصات . وحين كنا نحاصره في هذا الموضوع كان يلجأ إلى المزاح والدعابة حتى أنني لأذكر مرة أنه أجاب أحدهم في هذا الصدد قائلاً : ولكن من يدفع تكاليف نشر الديوان ... أنا لا أملك المبلغ !؟ فيجيب الصديق الملحاح : لقد حسبت هذه التكاليف وهي لا تزيد على الـ (٨٠٠) ليرة سورية يا رجل ... أهذا مبلغ بسيط حتى لو تجمع معي هذا المبلغ فإنه سيكون كافياً لقضاء ثماني سهرات عامرة في أحد الملاهي مع الحسان الجميلات فكيف « أبعزقه » على النشر ... إذا لم يدفع المبلغ شخص غيري فلن يصدر لي ديوان شعر في حياتي على الإطلاق[٣٧] !

---

(٣٧) ديوان الحريري ، ص ٣ .

إلى ورقة يانصيب

شعر : محمد الحريري

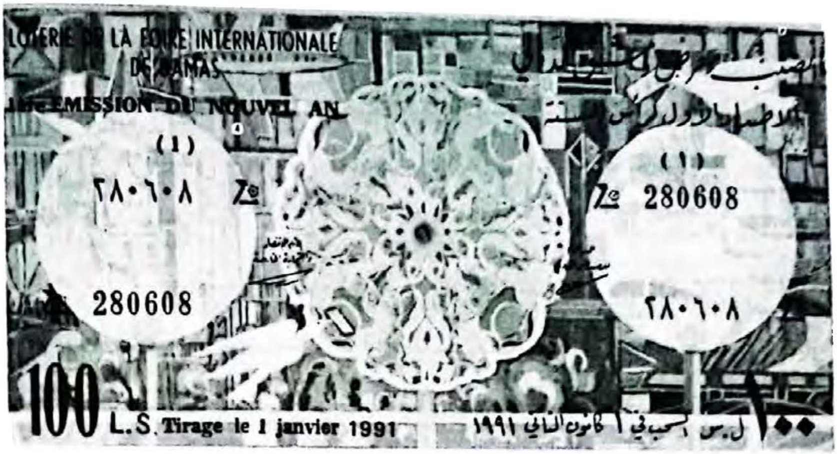

ورقة الحظِّ لستُ أومن بالحظ ... فخير منه قصيدة شعر
فهباتُ القرائح الغرِّ مجدٌ ... وهباتُ الأرقام ضحكة صِفرِ
خنتني ألف مرة ، تعَبت كفي ... ملالا من سحبك المستمر
أنت في شجرة الغيوب ارتعاشٌ ... فتهاوى عليَّ رعشة زهر
إن أردت الهبوط في كفّ راحٍ شارِ ... فاقصدي كفَّ بائس واستقري
إن رِبْح الفقير فُرْجَةُ غَمّ ... ولربح الغني زحمة تبر
أتراهُ يبقى على حاله الأولى ... رصيناً أم يستحيل لنُكرِ
أتراهُ يظلُّ قطّاً ألوفا ... أم يفوق الطاووس مشية كبر
ورقة الحظِّ إن صَغيتِ إلى نصحي ... سليما من كل قصد تُسرّي
لا تَقَرّي إلّا براحة حسناءُ ... وصُدّي عن الرجال وفِرّي[٣٨]

(٣٨) المصدر السابق ، ص ٩٣ .

□ **أمير البزق (محمد عبد الكريم)**

مؤلف الكتاب وأمير البزق

كانت لقاءاتي العفوية مع أمير البزق (محمد عبد الكريم) ، تتم غالباً في مطعم الريس بدمشق ، الذي يملكه صديقنا المحترم السيد (أبو سمير) ، ثم أصبحت اللقاءات في مطعم السياحة ، وأخيراً ضمن (صالون الشرق) لتصليح ومسح الأحذية ، لصاحبه السيد إبراهيم نصر ، الذي يملك (ماكينة خياطة) تعتبر من أوائل (الماكينات) التي دخلت دمشق . وسبب اختيار هذا (المكان) هو قربه من منزل الأمير .

وفي كل لقاء ... كنت أفتح شهية الأمير الخطير للكلام ... ولم يكن الأمير الظريف يبخل عليّ بالحديث عن ذكرياته القديمة ، وانطباعاته الفنية والذوقية عن بعض مطربي هذه الأيام ، الذين ظهروا في كل مكان كنباتات وحشية متسلقة ، وراحوا يقدمون للجمهور المغلوب على أمره الفن الهابط ...

ومما جعل الصداقة تتوطد بيني وبين الأمير ، أنني تصديت - كصحفي -

للشباب الذين كانوا يزعجونه في سكنه ... فقد كان الأمير – رحمه الله – يسكن في (عين الكرش) أحد أحياء دمشق الأنيقة ، ويشاطره السكن في المنزل شباب توفت عنهم جدتهم ، وهي سيدة فاضلة محترمة ، كانت تساعد الأمير في تحضير الشاي والقهوة ، وصنع الطعام ... وبالمناسبة فإن الأمير لا يعرف من الطهي سوى صنع البيض المسلوق ، وتحضير الحساء الجاهز المعروف باسم (ماجي) .

وبعد وفاة الجدة التي كانت تعطف عليه ، حاول الشباب (الورثة) طرده من الغرفة ليصبح المنزل بكامله لهم ... مما دفعني إلى كتابة خاطرة نشرتها في صحيفة (الثورة) السورية ، ويبدو أن هذه الخاطرة الغاضبة ، دفعت رجال الشرطة في قسم المرجة ، بالتدخل السريع في هذه القضية ، فاستدعوا الشباب إلى المخفر ، وكتبوا تعهداً على أنفسهم بعدم التعرض للأمير أو إزعاجه ، فوافقوا على مضض .

وفي مناسبة ثانية ... طلبت من نقابة الفنانين بدمشق ، بأن تقوم بحلّ مشكلة الأمير السكنية ، كأن تحجز له غرفة مناسبة في أحد فنادق دمشق ، علاوة عن تقديم الوجبات الغذائية له ، وصنوف الشراب إذا رغب ... وأنهيت المقال بهذه الكلمات :

« ... فهل نستكثر على الأمير مثل هذا الطلب المتواضع ؟ لاسيما وأن راتبه التقاعدي لا يتجاوز الـ « ١٣٠٠ » ليرة سورية !! بينما نقابة الفنانين لا تعاني من أية متاعب مالية ... ومن مهامها الرئيسية مساعدة الفنانين المبدعين » .

وهكذا نشأت صداقة عميقة بيني وبين الأمير ، هذه الصداقة ساعدتني على توثيق حياة الأمير الفنية ، لئلا تضيع في ذمة التاريخ .

المنافس الخطير :

إن شيئاً واحداً قد أصبح يغيظ أمير البزق في الآونة الأخيرة . أنه على استعداد لأن يضحي بأشياء كثيرة بما فيها الإمارة . ولكنه ليس على استعداد لأن يقبل إطلاقاً أو يتنازل حتى لمجرد التفكير بأن هناك من ينافسه بما خصته به الطبيعة من مزايا

« فيزيقيه » لا تمنحها إلّا للقليل النادر من البشر . بخاصة وأن المنافس الغريب قدم من الباكستان ليغيظ أمير البزق في عقر داره ، ويعكر عليه صفو أيامه . وقد بلغ من صفاقته ووقاحته أنه ما أن يلمح الأمير حتى يسارع فيخرج له لسانه .

هكذا لمجرد إغاظة الأمير وإخراجه عن طوره . وقد تساءل لأول مرة : ماذا يريد مني هذا الـ «عكروت ... » !؟ وما لبث أمير البزق أن طرد صورة هذا الصفيق الوقح الذي لا يستحي من ذاكرته . وانصرف للتجسس على الأنغام الوسنانة التي تتمايل وتتمطى في داخله .

نسيه تماماً . وخيل إليه أنه لو أراد من ذاكرته أن تسعفه باسترجاع شكل هذا الصفيق وهيئته لأبت عليه ذلك . لكن سعادة أمير البزق لم تدم طويلاً لأن الصفيق عاد ليبرز أمامه فجأة . ولدهشته رآه يتقدم إليه وقد اكتسى وجهه طابع الجد والوقار والأدب فبلغت صفاقته ووقاحته حداً لا يطاق بحيث كاد أمير البزق أن يخرج من جلده غيظاً وتمنى لو يرفع عصاه وينهال بها عليه ضرباً حتى يعيده إلى صفته الأولى . لكنه تمالك نفسه ورباطة جأشه وهو يشعر بالقلق إزاء خصمه الذي يمد له يده للسلام .

استغرق التفكير بالأمر ثانية مثل لمح البصر . جالت في ذهن أمير البزق عدة أفكار للتخلص من هذا المأزق التاريخي في حياته . لقد حاصره خصمه . فأما أن يهرب ويلوذ بالفرار أو يخضع للأمر الواقع ويمد يده لتلتقي بيد خصمه . وبحركة لاشعورية رأى أمير البزق يده تمتد لتلتقي مع اليد الممدودة . وليت الأمر اقتصر على المصافحة ، فقد اضطر أمير البزق لأن ينحني أمامه ، فكانت أول انحناءة في تاريخ حياته بأكملها . وقد فعلها غصباً عنه ورغم أنفه .

لقد مرغ هذا الوقح سمعتي بالتراب . رأيت أمامي ـ لأول مرة ـ إنساناً أقصر مني . والذي غاظني أن كل الناس « بيوطولي » عند السلام ... إلّا هذا الـ « .... » فأنا الذي « وطيت » له .

ومن أجل إيضاح الموقف الكاريكاتوري ، فإنه لابد أن نذكر بأن طول أمير البزق « ٨٩ » سم . وأن طول خصمه حسب تقديره « ٨٠ » سم على وجه التقريب أي أن خصمه يهزمه بفارق « ٩ » سم إلى تحت . وهذه كارثة غير متوقعة في حسابات أمير البزق عليه أن يعيد فيها تقييم رصيده من جديد .

والأدهى من ذلك – يقول أمير البزق وهو يضرب كفاً بكف – إن خصمه الباكستاني العنيد فنان من فناني الليل يعمل في أحد ملاهي دمشق ، ويقدم « نمرو ستربتيز » يمثل فيها دور رجل فحل ! ومعنى ذلك أن الخصم يهزم أمير البزق في ميدان آخر كان له فيه صولاته وجولاته . ألا وهو ميدان الغرام وإغواء الجميلات والحسان .

كيف « يضبع » الأمير المرأة ؟

يقول الأمير :

– يمتد تأثيري على المرأة من خلال الفن . وإذا لم اؤثر فيها فنياً فإنني لا أستطيع أن استهويها . فالمرأة شغوفة بالرجل الفنان لأنها تحس أنه يقدم إليها بفنه شيئاً من داخله . فإذا أثر بها « ضبعها » . وهي في هذه الحالة لا يهمها إذا كان هذا الرجل كبيراً أو صغيراً ، وقصيراً أم عملاقاً . وإنما يهمها كتلة الفن الهيدروجينية المغناطيسية التي جذبتها إليه .

ونحن (يقصد الفنانين) « كلبجنا » الكثير منهن بهذه الطريقة . شرقيات غربيات من كل الألوان والأجناس . وعرفنا طبائعهن وما تمتاز به كل واحدة عن الأخرى . لنا امرأة في كل بلد . بألمانيا ومصر وبيروت والعراق والشام ... إلخ . وهم يجيئونا بين وقت وآخر يزورونا . « بيعطوننا روح » ... « بيخلونا نشعر أننا ما زلنا موجودين في مجدنا » ....

ويكتفي أمير البزق بهذا المقدار متواضعاً لأن جغرافيا المرأة لا تتعدى هذه الحدود . ويلعن كل إنسان يتكلم أبعد مما يعرف . ويضيف تعليقاً على ذلك أن

النسوان لمن عالمهن وحلاوتهن ومرحهن ، وإن من لا يعرفهن لا يعرف شيئاً . وأن من يعرفهن يعرف كل شيء . ليه ؟ لأنه عندئذٍ يكون قد عرف سر النغمة وعرف الحرنرك !

ما هو الحرنرك ؟

يجيب أمير البزق ضاحكاً وهو يغمز بعينه : سر همزة الوصل بين المرأة والرجل . وهو الحلاوة عندما تبلغ أقصاها فإذا التي تكلمها تجيبك وتتجاوب معك بالنكتة والذوق والتقدير . ولا يعرف معنى هذه الحلاوة إلّا مجرب خبير يستطيع أن يجعل المرأة تتكلم كلها : وجهها .. يديها .. فمها .. إلخ .

أما المرأة التي تكون معك وهي بواد وأنت بوادٍ . يفصلك عنها ألف مليون سنة ضوئية ، فهذا هو الموت بعينه . وهذه هي المرارة نفسها .

طار العصفور :

في إحدى المرات أحب أحد أصدقائي الذين يودونني أن يعبر لي عن حبه ووده فأهداني عصفوراً « جرمانياً » من النوع الغالي مع قفصه . ولا تستطيع أن تتصور الإزعاج الذي سببه لي . ففي الليل أثناء استغراقي في النوم صار يغرد وأنا « أنقز » . وما عرفت متى طلع الصباح حتى أمسكته ورميته من النافذة . طار وبقي القفص . أنا لستُ معتاداً أن يقاسمني أحد وحدتي حتى ولو كان عصفوراً . فما الحال إذا كانت امرأة !؟ إن هذا الشيء يجعل الوحي يهرب لا يلوي على شيء .

نوادر :

نوادره كثيرة ... في إحدى المرات سألته أحداهن : إذا أردت الزواج فهل تتزوجها طويلة أم قصيرة مثلك ؟ فأجابها : أتزوجها طويلة ... وعندما حاصرته لتعرف السبب .. أجاب : حتى تعطيني ما أريد من فوق . وأعطيها أنا ما تريد من تحت .

وفي إحدى المرات التقى مع الفنان رفيق سبيعي المعروف بأبي صياح فقال له وهو في دهشة من أمره : أليس غريباً وأنت الطويل ما شاء الله أن تكون « سبيعياً » ، وأكون أنا « تسيعياً » ، ويقصد أن أمه حملته تسعة شهور(٣٩) .

شهادة الأستاذ صميم الشريف :

كان الفنان محمد عبد الكريم من أكبر فناني الوطن العربي على الإطلاق ، أمام عبقريته وعلمه الموسيقي تتضاءل علوم الآخرين ، وأمام تجربته الفنية التي تزيد على الستين عاماً ، تخجل وتتقزم تجارب الآخرين ، فهو أكبر خبير موسيقي في سورية في علم المقامات الدقيق الذي يقف كبار العاملين في الموسيقى عاجزين عن سبر أغواره والتأليف في ضروبه وألوانه .

إنه عبقرية موسيقية ، قلَّ أن يجود التاريخ بمثلها ، وما أبخل التاريخ بجوده(٤٠) .

□ زاهد أفندي الألشي :

كان زاهد أفندي الألشي قاضياً في دوما ، وهو من المشهورين بخفة الدم . جاءه محمد عبد النافع أبو غنيم يوماً بعرضحال يقول فيه أن الله سبحانه وتعالى خلقه بغير إرادته ، ودفع به إلى خضم هذا العالم دون أن يستشيره ، وحكم عليه بقدرته أن يتزوج ففعل ، وأنعم عليه بأولاد من ذكور وإناث ما يزيد عددهم عن تلامذة مدرسة إبتدائية ، ومن كثرتهم أفلس ، فكانوا سبباً لمصيبته ، ولذلك فإنه يرجو من حضرة القاضي جلب المدعى عليه ليقاضيه ويسأله لماذا خلقه ؟ ولماذا قطع رزقه !؟ حتى أنه أوعز إلى أصحاب الحوانيت من التجار أن لا يسلفوه حاجة ، مهما كان ثمنها . وهو يطلب الإنصاف من القاضي لأنه لم يعد يحتمل مرارة هذه الحياة !

أخذ القاضي المعروض وذهب إلى القائمقام ، وكان الأمير أمين أرسلان ، فأطلعه

(٣٩) من مقابلة صحيفة أجراها الصحفي فاروق البقيلي ، بحضور الزميل الصحفي سعد الله خان .
(٤٠) تشرين ، ١٩٨٨/٩/١٤ .

على القصة ، وقال له : سأنظر في قضيته بعد إتمام القضايا التي بين يدي اليوم ، وأطلب إليك أن تحضر الجلسة .

وهكذا كان ، فعقد القاضي جلسة خاصة ، ومنع حضورها إلّا على كبار موظفي الدولة . ثم طلب المدعي ، وهو يتكلف الجد ، وسأله عن دعواه ، وطلب إليه أن يحضر المدعى عليه ، فأجابه : أنه حاضر ناظر في كل مكان !

ثم قال : إن قصتي بيدك مكتوبة !

فأمره أن يرويها ثانية ، فأعاد شكواه ، واصفاً البؤس الذي يحيط بأسرته من كثرة أفرادها ، فقال له القاضي : منذ متى هذه العداوة بينكما ؟

قال المدعي : منذ مدة طويلة !

سأله القاضي : منذ تلك المدة إلى اليوم كم قاضٍ جاء دوما ؟

قال : كثيرون !

فقال القاضي : لماذا لم تتقدم إليهم بهذه الشكوى ، لينصفوك في دعواك ؟

فأجاب : إن الذين تقدموك لم يكونوا مثلك أصحاب جرأة ومتانة ، والجميع كانوا يخافونه ، ولهذا لم أقدم لأحد شكواي . ولما رأيتك أنك الوحيد الذي لا يخافه ، أتيتك بشكواي طالباً منك الإنصاف !

فصعق القاضي ، وصعق الحاضرون . وبعد أن ذهبت موجة الدهشة قال القاضي : هل تريد الصلح مع خصمك ؟

فلما أجاب بالإيجاب ، قال القاضي : إذن تعال في المساء إلى داري !

وفي المساء ذهب عبد النافع إلى دار القاضي فقدم إليه خمسة دنانير ذهبية ، وأعطاه طحيناً ومؤونة الدار لمدة سنة من زيت ودبس وبرغل وزيتون ، وقال : اكتب براءة بينكما .

فكتب له براءة ، فوضعها القاضي في جيبه وقال للشهود الحاضرين بعد أن أشهدهم فيها : إني سأوصي بإنزالها في قبري ، وإذا حاسبني الله - عز وجل - سأعطيه هذه البراءة الشاهدة بتخليص ذمتي ليعفو عني[41] .

☆ ☆ ☆

(٤١) مذكرات البارودي ، ج ١ ، ص ١١٩ - ١٢١ .

دمشق الفيحاء

أن يتحدث الإنسان عن دمشق في صفحات معدودات ... ذلك أمر يجاوز القدرة ويتحداها ... ولذلك لا يسع المرء إلّا أن يختار من هذا الحديث ما يقدر أن الآخرين لم يقفوا عنده ... ويبقى أن خير ما يستطيع أن يقرأه المرء عن دمشق ، أن يقرأ ما لم يكتب على جدران أبنيتها وقبور أبطالها ، وجدران صروحها ، وأسوار قلعتها ، ونقوش أضرحتها ، وخزائن كتبها ، ومعاهد دروسها ، وروائع صناعاتها . وأن يتحسس روح هذه المدينة الخالدة في معايشتها .

د . شكري فيصل

— ١ —

يقولون الكثير عن عتقها وقدمها وعمق جذورها في التاريخ ... يتحدثون عن بداياتها أحاديث لعلها إلى إلى الأساطير أقرب ... ولكن الأساطير ليست شديدة البعد عن الحقائق ، فالأسطورة هي الوجه الآخر للحقيقة التي لم نستطع أن نتبينها والتي نحاول أن نجد تفسيراً (ما) لها أو حدساً (ما) حولها .

في جملة هذه الأساطير التي تدور حول نشأة دمشق ، هذا الوصل بينها وبين بدايات الحياة على الأرض .. ولكننا نؤثر أن نتجاوز مرحلة التاريخ الغامض إلى مرحلة التاريخ المدون المكتوب ، لنرى دمشق هذه المدينة المزدهرة في عهود الأراميين ... لعلها أبرز هذه المدن التي كانت تنتشر في بلاد الشام والتي تؤلف مراكز القوة والتجمع لهؤلاء الأراميين الذين كانوا يسكنون هذه المنطقة ويؤلفون جزءاً من تاريخها ، وشعباً من شعوبها .

- ٢ -

والأراميون دفقة من هذه الدفقات التي انثالت من الجزيرة العربية على مدى تاريخها الطويل ... وما أكثر هذه الدفقات ... ألم تكن الجزيرة ، في بعض الآراء مهداً للساميين ؟

ومهما يكن من أمر الآراء الأخرى فإنه من المؤكد آن عدداً من الهجرات في فواصل متتابعة من فواصل التاريخ ، خرجت من الجزيرة العربية لتستقر هنا في الشام أو هناك في العراق أو هنالك في مصر . وأن الهكسوس ، في الجملة ، كانوا بعضاً من هذه الهجرات ...

إن الجزيرة العربية ، في هذا النحو أقرب ما تكون شبهاً بهذا القلب الذي ينبض بالدم ... في كل حركة منه دفقة عربية جديدة تترك جزءاً من الجزيرة العربية إلى جزء : هجرات من الجنوب نحو الشمال ، وهجرات من الوسط نحو الشرق .. أما حين ينبض هذا القلب بحركة كبرى فقد كانت هنالك هذه الهجرات التي تغادر الجزيرة إلى ما وراءها من أرض العراق ، وقد تتخطى الشام والعراق ، تضرب في أبعاد المنطقة الشرقية أو المنطقة الغربية من هذه الأرضين التي تعرف اليوم بأنها مواطن الإسلام ومنازل العروبة ...

- ٣ -

بعد الأرامين في الألف الأول قبل الميلاد نتوقف عند هذه الصورة التي نعرفها للقرن الخامس للميلاد من محاولة اقتسام العالم بين هاتين الإمبراطوريتين : فارس والروم ... وقد كانت بلاد الشام - آخر الأمر - في قبضة الروم البيزنطيين .

وصورة العرب الذين كانوا يستوطنون بلاد الشام أقرب إلى صورة الإمارة العربية الصغيرة التي تظل هذه القبائل من نحو وترتبط بنظام الدولة المسيطرة من نحو آخر ...

وقد كان لدمشق من هذه المدن والإمارات الصدارة ... كانت هي العاصمة ، وكانت مقر الحكم ومركز السلطان ، ولذلك كان فتح دمشق في حركة الفتح

الإسلامي أضخم الأحداث التي رافقت بدايات انتشار الإسلام ، حين أخذ هذا الإسلام ، بكل جوانب رسالته الدينية واللغوية ، يغادر الجزيرة ، ينقل خطاه منها نحو هذه الأقطار المختلفة عن يمين الجزيرة ، وعن يسارها .

ـ ٤ ـ

والحق أنه ما من حادثة أخرى في الحكم الأموي تعادل انتقال الخلافة من الجزيرة إلى الشام ... كانت هذه الحادثة وعاء لمسلسلة كبرى من التطورات في الحياة الداخلية للمجتمع الإسلامي ، وكانت سبباً من الأسباب القابعة وراء التطورات الكبرى في الحياة الخارجية أعني في امتداد حركة الفتوح إلى أقصى الشرق ، إلى الصين ، وإلى أقصى الغرب إلى أمواج الأطلسي وما وراء ذرى البيرنيه .

ومن هنا تكتسب دمشق في تاريخها الحيّ ملامحها الأولى والأصيلة ، من أنها كانت العاصمة للحكم الأموي الذي تحققت في ظلال راياته ـ أياً كان الرأي في الظروف ـ كل هذه التطورات .

ومن هنا تكتسب دمشق في تاريخها الحيّ ملامحها الأولى والأصيلة ، من أنها مركز الدولة العالمية التي طمح إليها الفتح العربي ، ومن هنا كذلك تصبح الأم الغازية الولود لعديد من العواصم التي كانت بعد ذلك في بغداد والقاهرة والقيروان ـ

سواء في ذلك عواصم الفكر وعواصم السياسة ـ .

ـ ٥ ـ

وما من شك في أن بغداد ظفرت خلال الحكم العباسي بما لم تظفر به دمشق . كانت سرة الدنيا ومجمع الناس ، وكانت ملتقى الحضارات والفكر ، وكانت مجال التفاعل بين أشد الآراء والفرق تباعداً ... ولعلّ هذا الذي غرقت فيه بغداد أو أغرقت فيه هو الذي ظل يعطي دمشق لونها الخاص ... فقد احتفظت بالخصائص الأصيلة للحياة العربية ، ولم تمكن لهذه الخصائص أن تكون موضع نقد وتشكيك وموضع هجوم وملاحاة ... لقد احتفظت بأكبر قدر من الصفاء الذي يمكن أن تحتفظ به عاصمة تتفتح على شعوب الدنيا كلها ... وتظل دمشق بعيدة عن مؤامرات الحكم وحركات الشعوبية ، كأنما تحتفظ بقواها لمواجهة الإعصار المغولي الذي اجتاح الأقاليم الشرقية وطغى على بغداد .

دمشق .. أقدم عاصمة مأهولة في العالم .. ويظهر جبل قاسيون الرابض في جلال وروعة

ومن قبل كانت دمشق تأخذ طريقها لتصنع خط الدفاع الثاني ، فتتجه نحو القاهرة ليكون من شأن هذا المحور الجديد أن يقف في وجه المحورين معاً : الإعصار المغولي في الشرق ، والإعصار الصليبي في الغرب . وتسجل دمشق والقاهرة في ذلك صفحات رائعات . جذورها في حركة التوحيد التي بدأها نور الدين ، ثم تنمو في عهد صلاح الدين ، ثم في عهد خلفائه من بعده ، ثم في عهد المماليك .

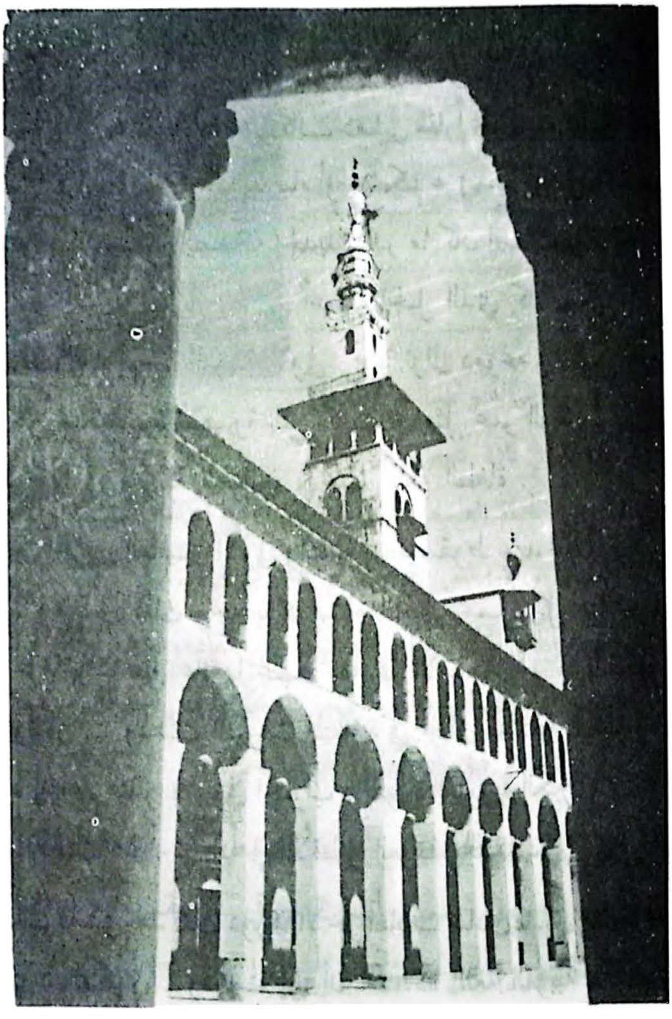

- ٦ -

ثم يغيب الموقف العربي كله عن المسرح ... لا يختفي ، ولكنه يحتمي بالثقافة بالمساجد والمدارس ، بالكتب والمؤلفات ... وتتولى الثقافة العربية الأصيلة الحفاظ على المقومات الأولى ... ويكون دور عصور الإنحطاط السياسي دوراً بارزاً من هذا النحو ... لأن كل ما تبقى من عناصر المقاومة لم يكن يجد ملجأً له إلّا أن يختبىء في جنبات المحاريب وعلى سلالم المنابر وفي غرف المدارس وعلى صفحات هذه المتون والكتب التي تعودنا الآن أن ننسى وظيفتها التاريخية الخطيرة .

- ٧ -

وفي فترة الاستعمار الأوروبي كانت دمشق مناراً لحركات المقاومة ومثاراً لها ... وفي دمشق شهد العرب من جديد قيام أول حكم عربي مع فيصل ... لم يكن الحدث بأشخاصه هو الذي فتح الصفحة الجديدة قدر ما كان الحدث برموزه : اللغة والعلم والعاصمة ، وتجديد التاريخ ... إني أعرف الجيل الذي كان يبكي إلى حد النشيج حين ارتفعت راية الدولة العربية الأولى . ولا تزال دموعه في عيني حين كان يقص ذكرياته عن هذه الفترة القصيرة التي كانت في مثل عمر الزهر ، بين إعلان الدولة وبين سقوطها في معركة ميسلون ، تحت أقدام الطغاة .

أما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية وبعد سقوط عهد الملك فيصل فقد أخذت دمشق – وهي في ذلك وجه بلاد الشام الذي يحمل كل ملامحها وتجتمع في قسماته عزماتها – على عاتقها عبء مقارعة الاستعمار ، لا بالفكر وحده بل بالحديد والنار ... وذهبت الثورات المتعاقبة في جبال اللاذقية « صالح العلي » ، وفي الشمال « إبراهيم هنانو » ، وفي الجنوب « الثورة السورية الكبرى » ، والاضطرابات الطويلة ، ذهبت مثلاً شروداً في الأقطار العربية المختلفة ...

وبدأت دمشق بعد ذلك دورها الآخر الهادف الهادىء . في متابعة الحركة القومية على الصعيد الفكري . وذهبت إلى أن استعادة اللغة العربية لمكانتها من العقول

والقلوب ، هي الطريق الطبيعي لاستكمال الوحدة .. وعلى ذلك ركزت أكثر جهدها .

- ٨ -

تكية السلطان سليم

في كل ذلك لم تكن دمشق مدينة الاثار والقصور والجوامع والمآذن والعمائر ، لم تكن مدينة الحجارة الضخمة والمآثر الباقية والفسيفساء الملون ، ولكنها كانت مدينة هذا الساحر العجيب الذي اسمه التاريخ ... كان فيها روح هذا التاريخ ... تغتدي من الماضي لتنير الحاضر مرة ولتثيره مرة ، ولتدفع به إلى أعماق المستقبل في مرات ....

- ٩ -

وعلى نحو ما كانت الأصالة والتسامح الطبيعة الخلقية لدمشق ، كذلك كان سحر الطبيعة وخصب الأرض محوري الحياة الطبيعية لهذه المدينة . وكما تكامل التسامح والأصالة ، تكامل الخصب والجمال . فدمشق بغوطتها واحة كبرى ...

يقول علماء الجغرافيا أنها تؤلف ظاهرة منفردة ... القادمون من الجزيرة تكتحل أعينهم بها أول ما تكتحل ، والضاربون نحو البحر يودعونها قبل اختراق سلسلة جبال لبنان الغربية آخر ما يودعون قبل أن يطلوا على البحر .

ولعله لم تلق أرض كما لقيت الغوطة من إعجاب الشعراء ... ألم يقولوا إنها إحدى متنزهات الدنيا الأربع ، ومن ينسى أبيات شوقي - سقى الله تراب شوقي الغيث - في قصيدته المشهورة عن دمشق :

آمنت بـالله واستثنـبت جنتـه | دمشق رُوْح وجنـات وريحان
قال الرفاق ، وقد هبت خمائلها | الأرض دار ، لما الفيحاء بستان
جرى وصفق يلقانا بها (بردى) | كما يلقاك ، دون الخلد ، رضوان

- ١٠ -

التسامح والأصالة إلى جانب سحر الطبيعة وخصب الأرض ... تلك كلها أكسبت دمشق عادات توشك أن تكون منفردة بها .. ويتبدى ذلك في أمرين : الاستمتاع بجمال الطبيعة وتذوقه ثم في حرصهم على مخالطة ضيوفهم وإكرامهم وإنزالهم من حياتهم وبيوتهم أكرم المنازل ... هذه الضيافة ، مقرونة إلى قوة الروح وعمق الأصالة ، هي التي جعلت الذين يسكنون دمشق جميعاً من أبنائها .. من أين جاءها الضيف وجد أن هذه المدينة أصبحت جزءاً منه ووجد أنه جزء منها(*) .

☆ ☆ ☆

(*) الهلال أيلول (سبتمبر) ١٩٧٤ ، للأديب الكبير شكري فيصل .

مراجع الكتاب

الكتب :

- دمشق دراسات تاريخية وأثرية ، مجموعة من الباحثين .
- خمسة أيام في دمشق ، علي الجندي .
- دمشق مقالات مجموعة ، المحامي أحمد غسان سبانو .
- تاريخ يتكلم ، فخري البارودي .
- مذكرات البارودي ستون سنة تتكلم ، ج ١ .
- جمال الخواطر في الأدب والنوادر ، ج ١ ، محمد الحسن الحموي الحسيني الأزهري .
- أعلام الأدب والفن ، أدهم آل جندي ، ج ١ .
- من الأيام ، د . محمد صبحي أبو غنيمة .
- دمشق في دوائر المعارف العربية والعالمية ، أحمد غسان سبانو .
- طرائف وصور من تاريخ دمشق ، هاني الخير .
- الصحافة المتخصصة ، د . فاروق أبو زيد .
- أشهر حوادث الإعدام على مر التاريخ ، أسامة توفيق عبد الهادي .
- طريق الخلاص ، آن كوله .
- أحمد الصافي النجفي - رحلة العمر ، عبد الله الشيتي .
- الحكم والأمثال الشعبية في الديار الشامية ، محمد سعيد مبيض .
- يحدثونك عن أنفسهم ، هاني الخيّر ، ج ١ .
- فنانون تشكيليون سوريون ، محمد حسام الدين وحسان أبو عياش ج ١ .

ـ بطولات على الورق (مخطوط) هاني الخيّر .
ـ للتاريخ والذكرى ، بدر الدين الشلّاح .
ـ دمشق في مطلع القرن العشرين ، أحمد حلمي العلّاف .

دواوين شعرية :

ـ الشوقيات ، أحمد شوقي .
ـ أشعة ملونة ، أحمد الصافي النجفي .
ـ ديوان السيد محمد سعيد حبوبي .
ـ ديوان محمد الحريري .

المجلات :

ـ المضحك المبكي العدد (٧٧٧) ١٩٥٠/١١/١١ .
ـ المضحك المبكي العدد (٨١١) ١٩٥١/٩/٨ .
ـ المضحك المبكي العدد (٨٣٣) ١٩٥٢/١١/٢٩ .
ـ المضحك المبكي العدد (٨٣٨) ١٩٥٣/١/١٠ .
ـ الدنيا ٢٣ نيسان (إبريل) ١٩٤٥ ، لصاحبها الأستاذ عبد الغني العطري .
ـ الدنيا العدد (٤٦) ٢٩ آب (أغسطس) ١٩٤٦ .
ـ الدنيا العدد (٨١) ، السنة الرابعة .
ـ الدنيا العدد (٢٠٩) ، السنة السابعة .
ـ الدنيا العدد (٣٤٥) ١٩٥٤/١/١٥ .
ـ الدنيا العدد (٦٢٤) ١٥ شباط (فبراير) ١٩٦٣ .
ـ الجندي العدد (١٦٠) ١٦ نيسان (إبريل) ١٩٥٤ .
ـ الجندي العدد (٥٥٢) ١٩٦٢/٥/١ .
ـ أهل النفط العدد (٦٩) تموز (يوليو) ١٩٥٧ .
ـ الهلال ، أيلول (سبتمبر) ١٩٧٤ .

- مجلة التبغ العدد (٤) أيار (مايو) ١٩٥٩ .
- مجلة التبغ العدد (٦) نيسان (أبريل) ١٩٦٠ .
- السؤال العدد (٥) آب (أغسطس) ١٩٩٠ .
- أضواء العدد (١٨٨ و ١٨٩) ١٩٨٩ .
- المصور العدد (١٧٦٦) ١٥ آب (أغسطس) ١٩٥٨ .
- المصور العدد (١٨٠٧) ٢٩ أيار (مايو) ١٩٥٩ .
- فصلة من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٩ .
- الجيل ، أيار (مايو) ١٩٩٠ .

الصحف :

- الأخبار القاهرية العدد (٢٤٢٩) ٢٠ نيسان (أبريل) ١٩٦٠ .
- الثورة السورية العدد (٨٤٤٧) ١٩٩١/١/١٣ .
- تشرين ، ١٩٨٨/٩/١٤ .
- تشرين (٤٧٢٨) ١٩٩٠/٣/٢٩ .
- الثورة العدد (٨٣٠٧) ١٩٩٠/٧/٢٢ .

☆ ☆ ☆

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الإهـداء ٧
تمهيـد ٩
دمشق في دائرة المعارف العالمية (يونفرسال) ١١
الفنون التطبيقية ١٥
الجمال الدمشقي في نظر الغربـيين ٢١
قصة القهوة وأدب المقاهي ٣١
في مقهى الهافانا ٣٤
من الأمثال الشعبية في الديار الشاميـة ٣٧
المناديات الدمشقية في الأثمار الشامية ٤١
البيت الدمشقي بين القـديم والحديث ٤٥
حكايات ودلالات من الماضي : ٥٧
الكلبة المدللة ٥٧
كيف كانت ذمة الناس في الماضي ٦٠
أبو جاسم الجليلاتي ٦٢
أحمد كمكوم ٦٤
التفاخر بين رجال الأحياء ٦٦
الملاك الأبيض مرة ثانية ٦٦
مكتبات دمشق صناعة ثقافية ورسالة حضاريـة ٦٩
المكتبة العربية ٦٩
مكتبة النوري ٧١

الموضوع	الصفحة

دار اليقظة العربية ٧٣
دار الفكـر ٧٥
دار الحكمة ٧٥
دار الكتاب العـربي ٧٦
دار سعد الديـن ٧٧
دار دمشق ٧٩
المكتبة الحديثة ٧٩
دار البشائر ٨١
دار أسامـة ٨٢
دار النمير ٨٣
دار كـرم ٨٣
مكتبة العائلة ٨٤
نصوح الدوجي رائد الإثارة البوليسية في الصحافة الدمشقية ٨٥
أبو جعفر يمضي ٤٧ سنة في مهنة إزهاق الأرواح ٨٨
صور ضاحكة من الحياة السياسية والإجتماعية : ٩٧
كان يستحم في حليب المرضى ٩٧
رجل يجيب على عتاب وزير بـقصة ١٠٠
موقف أنكر ونكير من الأغنياء ١٠١
شريك الدكتور سالمون ١٠٣
الشيء بالشيء يذكـر ١٠٤
البقاء في الحكـم ١٠٤
الخزينة خربانة ١٠٤
سفينة نوح ١٠٦
ديغول خبر دولتك باريس مربط خيلنا ١٠٦

الموضوع	الصفحة

كنيسة مصلّون ١٠٧
هواية غريبة ١٠٨
نهايات غير سعيدة ١٠٩
موت على رصيف الكلمات ١٠٩
عاشقة المتنبي ١١١
لص المقبرة ١١٢
مسرح الحياة ١١٤
ظرفاء دمشق : ١١٧
فخري البارودي ١١٨
فوزي تللو ١٢٧
صلاح المحايري ١٢٧
أبو درويش سويد ١٢٧
أحمد الجندي ١٢٨
محمد صبحي أبو غنيمة ١٤٨
حسني تللو ١٥١
أحمد الصافي النجفي ١٥١
محمد الحريري ١٦٠
أمير البزق (محمد عبد الكريم) ١٧١
زاهد أفندي الألشي ١٧٦
دمشق الفيحاء ١٧٩
مراجع الكتاب ١٨٧
الفهرس ١٩١

من مؤلفات هاني الخير المطبوعة

١ ـ دراسات في التراث العربي .
٢ ـ تراث ومعاصرة .
٣ ـ رباعيات عمر الخيّام في العربية .
٤ ـ يحدثونك عن أنفسهم ج ١ .
٥ ـ يحدثونك عن أنفسهم ج ٢ .
٦ ـ يحدثونك عن أنفسهم ج ٣ .
٧ ـ يحدثونك عن أنفسهم ج ٤ .
٨ ـ أسرار مثيرة من العالم : الطبعة الثانية .
٩ ـ أشهر الاغتيالات السياسية في العالم : ج ١ ، الطبعة التاسعة .
١٠ ـ أشهر الاغتيالات السياسية في العالم : ج ٢ ، الطبعة الخامسة .
١١ ـ أشهر الاغتيالات السياسية في العالم : ج ٣ ، الطبعة الرابعة .
١٢ ـ أشهر الاغتيالات السياسية في العالم : ج ٤ ، الطبعة الثالثة .
١٣ ـ أشهر الاغتيالات السياسية في العالم : ج ٥ ، الطبعة الأولى .
١٤ ـ حرب الاغتيالات السياسية والمؤامرات الصامتة ، ط ٣ .
١٥ ـ جرائم عالمية ، أرشيف الجرائم الغامضة .
١٦ ـ القصائد الأخيرة ، أحمد الصافي النجفي (تقديم وجمع) .
١٧ ـ الرسالة اللازوردية في موت الأولاد ، للإمام السيوطي (تحقيق) .
١٨ ـ الروض العاطر في نزهة الخاطر ، للشيخ النفراوي (تحقيق) ، ط ٣
١٩ ـ من تراث الشيخ عبد الرحمن الخيِّر (جمع) .

٢٠ ـ هذا أنت أيها الموحش ، قصص ساخرة .

٢١ ـ الموتى يتحدثون (ريبورتاج صحفي) .

٢٢ ـ طرائف وصور من تاريخ دمشق .

٢٣ ـ مقتطفات من تاريخ دمشق حكايات وطرائف وصور .

٢٤ ـ صور وطرائف من مجتمع دمشق .

٢٥ ـ الأصابع الخفية ضد الأهداف البشرية ، الطبعة الثانية .

٢٦ ـ من أعلام الفكر العربي والعالمي في القرن العشرين ، إعداد وتصنيف سليمان سعد الدين ، تقديم ومراجعة هاني الخيِّر .

☆ ☆ ☆

[illegible]

- شخصية محمد ﷺ ، للكاتب الهندي محمد علي مسلم تعريب الأستاذ ماجد خير بك .
- كتاب الصلاة والصيام وفق المذهب الجعفري ، للشيخ عبد الرحمن الخير ، الطبعة الثامنة .
- من تراث الشيخ عبد الرحمن الخيّر ج ١ .
- من نداء الإيمان ، للشيخ عبد الرحمن الخيّر .
- أساطير بابل وكنعان ، شارل فيرللو ، تعريب الأستاذ ماجد خير بك .
- دراسات في التراث العربي ، هاني الخير .
- معركة ذي قار ، للشيخ عبد الرحمن الخير .
- عقيدتنا وواقعنا نحن المسلمين الجعفريين (العلويين) للشيخ عبد الرحمن الخيّر .
- ستون يوماً وأنا في جحيم الكويت ، بشير سعد الدين .

تطلب هذه المؤلفات من هاني الخير :

دمشق ـ ص.ب : ٢٧٤

ويمكن إرسالها لطالبها بالبريد المسجل ، أو بالبريد الجوي ، بعد تسديد ثمنها

صدر حديثا

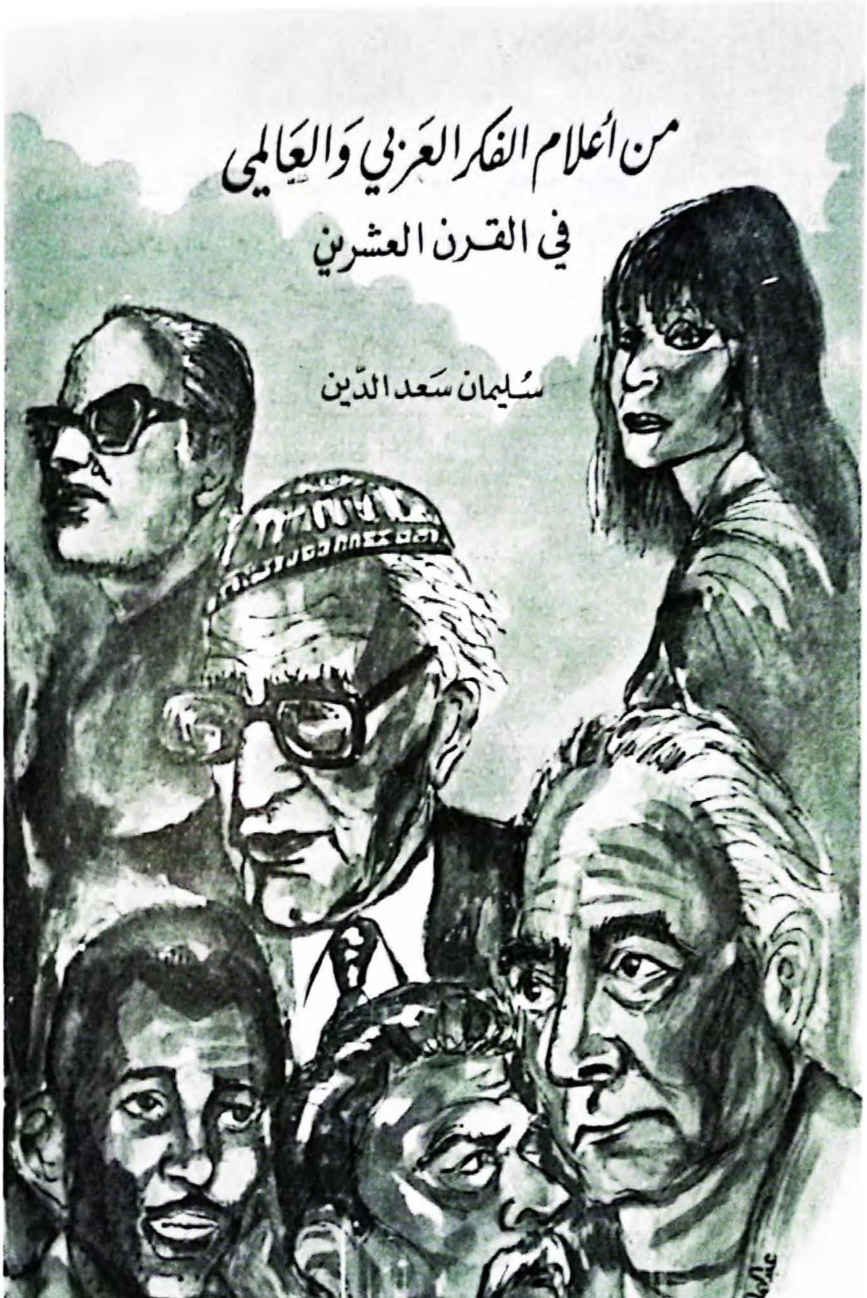
من أعلام الفكر العربي والعالمي
في القرن العشرين
سليمان سعد الدين

صدر حديثاً

هاني الخيّر

مقتطفات من تاريخ دمشق

حكايات وطرائف وصور

٧٥٠

إقرأ في هذا الكتاب

البيت الدمشقي بين القديم والحديث .

أشهر ظرفاء دمشق في القرن العشرين .

دمشق (١٩٤٠) في ذاكرة زائرة فرنسية .

كيف كانت ذمة الناس في الماضي ؟

حكاية الكلبة المدللة !

صور ضاحكة من الحياة السياسية والاجتماعية .

أبو جعفر يمضي (٤٧) سنة في مهنة إزهاق الأرواح .

نصوح الدوجي رائد الإثارة البوليسية في الصحافة الدمشقية .

الجمال الدمشقي في نظر الغربيين .

الأمثال الشعبية في الديار الشامية .

قصة القهوة وأدب المقاهي .

موقف أنكر ونكير من الأغنياء .

المناديات الدمشقية في الأثمار الشامية .

رجل يجيب على عتاب وزير بقصة .

ظاهرة التفاخر بين رجال الأحياء .

مكتبات دمشق صناعة ثقافية ورسالة حضارية .

مات وهو يضم مجموعته القصصية إلى صدره الدامي .

بالإضافة إلى حكايات أخرى طريفة مستمدة من صميم الواقع الدمشقي ...

كتب ذات فائدة